جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنين بالقاهرة

محاضرات
في
علم المعاني

لطلاب الفرقة الأولى

تأليف
الأستاذ الدكتور
فريد محمد بدوى النكلاوى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة والنقد
بكلية اللغة العربية بالقاهرة
(جامعة الأزهر)

تقديم

الحمد لله حمدا كثيرا ، له الحمد في الأولى والآخرة، أحمده حمدا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه ، خلق الإنسان علمه البيان ، وأصلي وأسلم على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تمسك بهديه ، ذلك النبي العربي الذي أوتي جوامع الكلم فجاء بيانه أفصح بيان.

وبعد ..

فهذه محاضرات في البلاغة العربية تناولنا فيها عدة فنون بلاغية من علم المعاني راعينا فيها السهولة والوضوح ليكون في متناول الطلاب فهم ما جاء فيها واستيعابه.

ونسأل الله – سبحانه وتعالى – أن ينفع بها وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل ، وأن يرزقنا الصواب والسداد ، وأن يمنحنا من فضله العون والتوفيق.

ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير.
وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أ.د. فريد بدوي النكلاوي

نشأة البلاغة

ووضع قواعدها

ووجه الحاجة إلى دراستها

نشأة البلاغة ووضع قواعدها

إذا نظرنا إلى تاريخ وضع العلوم العربية ، نجد أن معظمها قد وضعت قواعده ، وأرسيت أصوله في القرون الأولى من الإسلام ، وألفت الكتب العديدة في فن التفسير والنحو والتصريف والفقه وغيرها من فروع المعرفة ، وكانت البلاغة من أبطأ الفنون العربية في التدوين والاستقلال بذاتها لتكون علماً معروفاً له قواعده ، وأصوله ؛ لأنّ مسائل البلاغة كانت متفرقة بين بطون الكتب ، كما كانت مصطلحاتها غير واضحة بالصورة المطلوبة . وليس معنى ذلك أن المسائل البلاغية كانت مجهولة أو مهملة من الباحثين ، أو أنها كانت آخر المسائل التي تعرف عليها العلماء : بل على العكس من ذلك فربما أمكن القول بأن البلاغة كانت أسبق العلوم في إثارة الفكر ، والحض على التأمل والاستنباط.

ولعل السبب في تأخر ظهور الدراسات البلاغية في علم مستقل بها إنما يرجع إلى أن مسائل البلاغة إنما تحتاج إلى الذوق الرفيع الذي يحتاج بالتالي إلى حياة الاستقرار في الأمة ، ونمو حضارتها .. هذا بالإضافة إلى أن المسائل البلاغية المختلفة كانت موزعه بين طوائف شتى من العلماء ، وكان كل منهم معتنيا بجانب معين من مسائل البلاغة بقدر حاجته في مجال الفرع الذي تخصص فيه ، ومن ثم فإن البلاغة قد لاقت عناية من جانب علماء التفسير والكلام والنحو والأدب .. الخ وظلت مسائلها مبعثرة إلى أن هيأ الله لها من العلماء البارزين من جمع هذا الشتات في كتب مستقلة صارت معروفة بهذا الفن و إذا تتبعنا تطور الدراسات

البلاغـية وجدنا أنها قد مرت بفترات وأطوار مختلفة وانتقلت من موطن إلى موطن قبل أن تحظى بالاستقلال عن العرب القدامى.

(أ) كـان النقد الفطرى القائم على السليقة هو الخطوة الأولى فى طريق ظهـور أسـس البلاغة فقد كان للعرب قديماً ملاحظات نقدية على ما يلقـى بين أيديهم من أشعار وخطب وغيرها يعبرون بتلك الملاحظات عمـا يشعرون به استحسان أو استهجان لما سمعوه ، ولا نستطيع أن نحـدد بداية هذه الفترة تحديداً دقيقاً ، ولكن الذى يمكن تصوره هو أن هذه الظاهرة قد وجدت منذ وجد العمل الادبى من شعر وغيره ؛ لأن وجـود النقد مرتبط كما هو معروف بوجود الأعمال الأدبية ، ويكون دائمـاً فى أعقابها ، وأقدم ما وصل إلينا من نصوص أدبية وفنية جاء مصـحوبا بمـا دار حوله من عبارات الاستحسان أو الانتقاد ، وكان للـرواة أكـبر الأثـر فى المحافظة على هذه اللمحات النقدية إلى أن وصلت إلينا في عصر التدوين ، والجدير بالذكر أن نقدهم كان يتمثل في عبارات موجزة تخلو عن التحليل أو التعليل ، كما تخلو عن بيان وجه الاستحسان أو الاستهجان .

(ب) ولما جاء صدر الإسلام بقيت اكثر مظاهر النقد على ما هى عليه من حيث كونها ملاحظات متنوعة دون أن يجمعها ترتيب أو تنظيم إلا أن نشاط النقاد فى هذه الفترة قد تزايد فى إبداء الملاحظات ، وقد صحب ظهـور القرآن ، وهو معجزة الرسول ﷺ ومنهج الحياة – التأثير فى حياة اللغة العربية ، وإحياء علومها إلى جانب إثارة العلماء ، وحثهم

على الجد في البحث البلاغي لتبين مظاهر بلاغته ، وحسن تأليفه ، وروعة رونقه ، فقد نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين. وكانت آياته في القمة من البلاغ وكان لدى المسلمين الأوائل الملكة التي تعينهم على فهم كلام الله تعالى في سهولة وإدراك ما اختصت به تراكيب آياته من الأسرار ، ومعرفة سر إعجازه عند سماعة ، كما كانت لديهم القدرة بفطرتهم على الوقوف في وجه الملحدين الذين دأبوا على الطعن في القرآن الكريم.

ولما نشأ في ظل الإسلام أجيال يصعب عليهم فهم آيات القرآن الكريم وما ترمي إليه من معان بسبب ضعف فطرتهم العربية لما خالطوا غيرهم من أصحاب البلاد التي فتحها المسلمين ، إلى جانب أنّ غير المسلمين من العرب حينما تعلموا اللغة العربية فإن معظمهم لم يكن لديه القدرة في أن يحسن التعبير أو الفهم لأسرار التراكيب العربية بالقدر الذي ينبغي ، ومن ثم فإنّ العلماء بدأوا يدونون كثيراً من العلوم التي تشتمل على القواعد التي تحفظ اللسان العربي قدرته على التعبير والفهم السليم للتراكيب العربية المختلفة وأولها القران الكريم.

وقد أثار العلماء كثيراً من البحوث التي تجعل الناس يقفون بيسر على أسرار جمال القول ، وإدراك معاني الأساليب .

كما جد كل فريق من العلماء في البحث في مجال تخصصه ، وأسهم كل منهم بجانب لا بأس به في مجال الدراسات البلاغية .

فالمفسرون قد اسهموا فى هذا المجال بجهد مشكور، وذكروا كثيرا من مصطلحات البلاغة فى كتبهم تلك المصطلحات التى تتداولها حتى الآن، فكم فيها من ملامح ومصطلحات بلاغية تبلورت فيما بعد ، ومن اقدم هذه الكتب مجاز القران لأبى عبيده (ت ٢٠٧ هـ) وتأويل مشكل القرآن لبن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)ومن أبرزها إلماة لدراسة البلاغة الكشاف للزمخشرى (ت ٥٣٨ هـ).

كما شارك علماء العلوم الفلسفية والتوحيد بجهود لا تقل أهمية عن جهود غيرهم ؛ لأن مسألة إعجاز القرآن الكريم ، ووجه هذا الإعجاز قد خلق جواً من التنافس العلمي بين هؤلاء العلماء على اختلاف طوائفهم لبيان سر الإعجاز ، وهل كان ذلك الإعجاز بصرف الله هم العرب عن معارضته والإتيان بمثله ؟ أو بما احتواه من أخبار عن غيبيات وغيرها ؟ أو كان إعجازه بدقة نظمه ، وفصاحة أسلوبه وبلاغته ؟..

كل تلك أدى إلى أن تدافع كل فرقة عن مبادئها الخاصة ، وعن رأيها فى هذا المجال ، وكان لا بد لكل فرقة من دراسة القرآن الكريم دراسة متأنية تبين فيها مغزى كل آية ، وما تهدف إليه ، وما وراءها من أسرار ليدعم رأيه بما يتوصل إليه من دراسة لفنون البلاغة ، وقد وضعت كتب فى الإعجاز تحتوى على كثير من مصطلحات البلاغة ، ومن أبرزها فى ذلك الوقت كتاب – نظم القرآن الكريم للجاحظ . (ت ٢٥٥ هـ)

ومـــن جانب آخر فقد ساهم المتكلمون في إنماء دراسة البلاغة عن طريق ما كانوا يقومون به من تعريف شبابهم بمواطن البلاغة ، وتدريبهم على الخطابة؛ ليحملوا راية الدفاع عن مذاهبهم من بعدهم .

وساهم النحويون كذلك بجهد طيب في إثراء الدراسات البلاغية التى زخرت بها معظم مؤلفاتهم ؛ لأن نظرتهم لقواعد النحو لم تكن موقوفة على صحة الإعراب فقط ، بل تجاوزت ذلك إلى بيان مواطن التقديم والتأخير ، والذكر والحذف ، والتعريف وعدمه ، وغير ذلك من البحوث النحوية التى صـــارت فـــيما بعد من ركائز القواعد البلاغية ، كما كانوا يفاضلون بين أسلوب وأسلوب ، ومن هذه المؤلفات الكتاب سيبوية (ت ١٨٠هـــ) ذلك العالم النحوى المعروف ، وقد بنى عبد القاهر نظرية النظم التى وضع لها كـــتابه دلائل الإعجاز على قواعد النحو ، مسترشداً فى آرائه بما جاء فى الكتاب لسيبويه ، وغيره من النحويين ، على نحو ما ستعرف فيما بعد.

وكـــان للفقهاء ، وعلماء الأصول جهود أثمرت فى دراسة البلاغة ، لأنهـــم اعتمدوا على القرآن ، باعتباره المصدر الأول للتشريع .. ومن هنا فقد تعرضوا فى كتبهم لبيان معنى الحقيقة والمجاز ، والكناية والتصريح ، وكذا النكرة والمعرفة ، والعموم والخصوص .. الخ تلك المصطلحات التى صارت من أبرز المسائل البلاغية فى علم البيان والمعانى فيما بعد .

ومـــن أراد أن يـــرى ذلك فعليه بالرجوع إلى مقدمة كتب الأصول المدونـــة قديمـــا وحديثاً ، وسيرى ما فيها من مسائل بلاغية ، ومن أقدمها كتاب الرسالة للأمام الشافعى (ت ٢٤٠ هـــ) ﷺ .

كما كان للكُتّاب في الدولة الإسلامية شأن في الدراسات الأدبية ، وكان لمؤلفاتهم أثر واضح في إثراء حياة البلاغة العربية ، وقد اشتهر منهم الكثير كابن المقفع (ت ١٤٣ هـ) وقدامة بن جعفر ، (ت٣٣٧ هـ) وامتاز منهجهم في كتاباتهم بأنه منهج أدبي ذوقي ، يقوم على عرض النصوص ، والموازنة بينها .

وكان لرواة الشعر والأخبار الأدبية دور له أهمية ، فقد وصلوا ماضي العرب بحاضرهم ، وحفظوا تراث اللغة ، ونقلوا ما استطاعوا العثور عليه من متن اللغة ، وأحاديث الأدب ، وكان لهم الفضل في التعريف بخصائص الأسلوب العربي ، وما يتصل بذلك من دراسة بلاغية.

* * *

أهمية الدراسات البلاغية ووجه الحاجة إليها

إن لدراسة البلاغة أهمية عظيمة لها ثمرتها التى تعود على دراسها بشكل واضح ، ويتمثل ذلك فيما يلى :

(١) الوقوف على أوجه إعجاز القرآن الكريم ومعرفة أن سر فصاحته إنما يرجع فى المقام الأول إلى دقة نظمه ، وحسن ترتيبه ، وجودة سبكه ، وبـراعة تراكيبه ، ولطف إيجازه ، وعذوبة ألفاظه ، وما احتواه من صور بلاغية رائعة أعجزت أساطين البيان من العرب أن يأتوا بمثلها لأن القرآن الكريم كلام رب العزة ، تلك الكلام الذى ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[١] وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢].

ومـن المعـروف أن القـرآن الكريم قد سحر ببيانه العرب ، وهم مضرب المثل فى الفصاحة وطرق التعبير ، من شعر وغيره ، ولا يخفى علينـا قصة الوليد بن المغيرة ، وهو على الشرك حين سمع من الرسول ﷺ بعـض آيات من كتاب الله فقال (إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وانه يعلو ولا يعلى عليه)[٣].

---

١ – سورة فصلت الآية (٤٢) .

٢ – سورة الإسراء الآية (٨٨).

٣ – يـنظر : مقدمة الإمام الزمخشرى فى كشافة ط صـ ٦ ، ٧ والكشاف صـ ٦٣٦ وهو بصدد تفسيره لسورة المدثر.

فمعرفة قواعد البلاغة والوقوف على إدراكها مما يساعد على ذلك.

٢) معـــرفة الأسرار البلاغية التى احتواها التراث الخالد من أشعار العرب ونثرهم في شتى صوره .

٣) تربية الذوق النقدى المرهف ، والملكة القوية التي يستطيع بها الفرد أن يـــدرك ببصيرة نفاذة جمال الصور البيانية الخلابة التى تعرض علينا ، متمثلة فى أساليب التعبير ، من شعر ، وخطابة ، ورسائل ، ومقالات ، وقصص ، فيتمكن الفرد من معرفة الجيد من الردئ من هذه الصور .

٤) تربية المملكة القوية التي يقتدر بها على التعبير في شتي الأغراض ، والمساعدة علي صنع كلام جيد.

٥) تقويم اللسان العربى ، والمحافظة عليه من اللحن ، والإبقاء على لغته الأصـــلية حـــتى لا يـــتأثر بما جاوره من اللغات المختلفة ، خاصة بعد اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين دخلوا الإسلام ، وتعلموا اللغة العربـــية، ومن هنا كان لابد من وضع القواعد الخاصة بتربية الملكات وإنمائهـــا؛ لتكون تلك القواعد بمثابة القوانين التي يرجع إليها عند إرادة الحكـــم علـــى عمل أدبي من حيث الرداءة والجودة ، ويقول أبو هلال العسكرى فى ذلك :–

إن أحـــق العلـــوم بالتعلم ، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله – جل ثـــناؤه – علم البلاغة ، ومعرفة الفصاحة ، التى بها يعرف إعجاز القرآن الكـــريم... والإنســـان إذا غفل علم البلاغة لم يقع علمه بإعجاز القرآن .. وكذلك يجهل المرء الفرق بين الجيد والردئ من الكلام ، ويجهل الاختيار الحسن ، وقديما قيل : اختيار الرجل قطعة من عقله ، كما أن شعره قطعة من علمه".

أبرز العلماء

الذين أسهموا في تطور الدراسات

البلاغية على مر العصور

أبرز العلماء الذين أسهموا فى تطور الدراسات البلاغية على مر العصور

ذكـــرنا أن الـــنقد كان من الأسس التي اعتمدت عليها البلاغة في نشـــأتها وتحدثـــنا إجمالا عن جهود كثير من طوائف العلماء الذين أسهموا بجانـــب لا بأس به في إثراء الدراسات البلاغية ، ومع ذكر أشهر العلماء الذيـــن كان لهم مؤلفات أدبية تناولوا فيها جوانب البحوث البلاغية المتفرقة الـــتي ساهمت فيما بعد في وضع مؤلفات مستقلة على يد بعض العلماء ، وسنذكر ذلك هنا بشيء من التفصيل :-

مـــن أقدم الكتب التى بدأت تتكلم عن أمور خدمت البلاغة فيما بعد كـــتاب مجـــاز القـــرآن الكريم ، وقد وضعه **أبو عبيدة معمر بن المثنى** المتوفى سنة ٢٠٩ هـــ عندما سأله رجل في مجلس الفضل بن الربيع عن قولـــه تعالى ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾[١] قائلا : إنما يعرف الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف ؟ فأجابه أبو عبيده : بأن رب العزة – جل جلاله – كلم العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس :

أيقتلني والمشـــرفي مضاجعي ∴ ومســـنونة زرق كأنياب أغوال ؟

١ – سورة الصافات الآية / ٦٥.

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهمهم أوعدوا به، وعزم أبو عبيدة على أن يضع كتابا فى القرآن فى مثل هذا وأشباهه، وألف كتاب : مجاز القرآن .[١]

والجدير بالذكر أن أبا عبيدة لم يكن يعني بالمجاز معناه المعروف فــى اصــطلاح البلاغيين اليوم ، وإنما قصد إلى بيان المعانى المرادة من الآيات الكريمة .

لأن هذه المصطلحات لم تكن تبلورت فى الأذهان بعد ، على كون هــذا اســتعارة أو كناية .. الخ ، كما ظهر إلى الوجود أيضا **كتاب معاني القــرآن للفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هــ** وفيه بعض الملاحظات التى تتعلق بعلــم البلاغة ، فكان يشرح الآيات ، ويبين معنى العبارات ، موضحاً ما فــيها من تقديم وتأخير ، وإيجاز وإطناب وتشبيه ، أو غير ذلك بما يتفق وأولــيات البحث ، وإن لم يكن فى شرحه وبيانه وفاء بالغرض على أكمل وجه[٢].

وفــى القرن الثالث الهجرى وضع الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هــ كــتابه البــيان والتبيين "وكتاب الحيوان ، ويعد الجاحظ أول من تناول فى كــتابه كثــيراً من مسائل البلاغة الفنية التى كانت القاعدة لمن جاء بعده ،

---

١ - وفيات الأعيان ٢/١٣٨ط / بولاق.

٢ - ينظر : أضواء على مراحل البحث البلاغي للدكتور/ محمد جلال الذهبي ص ٤٠ ط – دار الاتحاد التعاوني للطباعة والنشر – أولى – غير مؤرخة.

ولـــذا فـــإن مـــن العلمـــاء من يعتبره مؤسس البيان العربي بما جمعه من النصوص .[1]

وبالرغم من أن كلامه عن البلاغة والبيان جاء متفرقا في ثنايا كتبه دون أن يجمعهـــا في باب واحد ، فقد قدم المادة والمصطلح ، وذكر كثيراً من الشواهد والتحليلات التي أفادت منها كتب في البلاغة بعد ذلك .

ومن أبرز ما أثاره الجاحظ من مصطلحات بلاغية :

فصاحة الكلمة والكلام ، وذكر أنه لابد للكلمة من تبرئتها من تنافر الحروف وأن تكون مألوفة واضحة ، وتحدث عن مراعاة مقتضى الحال واللفـــظ وانتقائه ، والتوفيق بين اللفظ والمعنى ، كما تكلم عن معنى البيان وأورد كثيرا من التعريفات المختلفة لمعنى البلاغة وذكر التشبيه والمجاز والايجاز والإطناب[2] .. الخ وأورد لكل ذلك الكثير من الأمثلة من تراثنا الأدبي .

وتحـــدث عـــن البديع ، وذكر كثيراً منه كالسجع ، وأسلوب الحكيم والاقتباس والمذهب الكلامي مع ذكر الكثير من الشواهد[3].

---

١ – وفيات الأعيان : ١٣٨/٢ ط / بولاق.

٢ – ينظر البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون ، جـــ١ ، ص ٤٧ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ١١٦ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، جـــــ٢ ، ص ٩٨ ، ٢٠١ ط ، مطبعة الخانجي بمصر ١٣٩٥هـــ ١– ١٩٧٥م .

٣ – ينظر البيان والتبيين ، جـــ١ ، ص٩٦ ، ٢٠١ ، جـــ٣ صـــ ٢٩٢ ، جـــ ١٨٣ ، جـــ ٢ صـــ ٦٧٤ ، جـــ ٣ صـــ ١٧ ، ٤٤ ، ٤٥ ط / المطبعة الأزهرية .

ولاشك أن الناظر في كتابه يجد كل هذه المسائل لكنها مبثوثة متفرقة ، ولا يتسع الوقت لسردها بالتفصيل.

ومن الكتب التي كان لها دور بارز في خدمة البلاغة العربية كذلك: **كتاب تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ** ، والذي ذكر في مقدمة كتابه أن الغرض من تأليفه هو الدفاع عن القرآن والذود عنه ضد مطاعن الملحدين الذين ، لغوا فيه وقاموا بتحريف الكلم عن مواضعه، وعابوا عليه بقولهم مرة هو سحر ، وأخرى: هو من قول الكهنة، وثالثة بأنه أساطير الأولين [١].

هذا وقد عرض بن قتيبة في كتابة المذكور لكثير من المطاعن التي يوجهها الملحدون إلى القرآن الكريم ، مشيراً إلى أن بعضها يرجع إلى الاختلاف في القراءات ، والبعض الآخر يرجع إلى الآيات المتشابهة من الكتاب العزيز التي لا يقف على معناها أو المراد منها إلا الراسخون في العلم ، وقام ابن قتيبة بالرد على هذه المطاعن جميعها عارضاً لحل مشكلات القرآن اللغوية والأسلوبية ، بأسلوب ينم عن مقدرته البارعة على الفهم لمحكم القرآن ومتشابهه.[٢]

---

١ -ينظر : تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق / إبراهيم شمس الدين صـ ٢٣،٢٤ نشر / دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – غير مؤرخة

٢ – ينظر السابق صـ ٢٤: ٦٨.

كما عرض ابن قتيبة فى ثنايا كتابه لكثير من المصطلحات البلاغية كالمجاز ، والاستعارة ، والتمثيل والتقديم ، والتأخير ، والحذف ، والذكر ، والكناية ، والتكرار ، والإيجاز ، والتفصيل ، والإيضاح ، والإظهار ، والقلب ، ومخاطبة الواحد بخطاب الجمع، ومخاطبة الجمع بخطاب الواحد، والالتفات، ومخالفة ظاهر اللفظ لمعناه ، والتورية ، وغير ذلك من المسائل البلاغية [١] التى اعتمد عليها البلاغيين الذين قاموا بالتميز بين علوم البلاغة الثلاثة (المعانى والبيان والبديع).

ومن أشهر من ألف كتبا تناولت مسائل من هذا الفن أيضا فى هذا القرن المبرد المتوفى سنة ٢٨٥ هـ فى كتابه الكامل فى اللغة والأدب ، وتناول فيه جوانب من مسائل البلاغة كالتقديم ، والتشبيه ، والكناية ، والاستعارة ، والمثل ، وغير ذلك ، ووقف أمام كثير من النصوص ينتقد ألفاظها وتراكيبها إلا أن كتابه غلب عليه طابع النحو والأدب .[٢]

ومن أشهر المؤلفين من كتابنا فى هذا القرن الشاعر الأمير عبد الله بن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦هـ الذى وضع كتابه البديع سنة ٢٧٤ هـ تناول فيه العديد من أبواب البلاغة التي تشمل علومها الثلاثة ، وقد أطلق لفظ البديع بمعناه العام دون المعنى الاصطلاحي المعروف لنا الآن ، وقد قسم الكتاب إلى قسمين :

---

١ – ينظر : السابق ص ٦٩:٣٠٩.

٢ – ينظر : الكامل للمبرد جـ ١ صـ ١٨٣،جـ ٢ صـ ٦٧٤، جـ ٣ صـ ٤٥،٤٤،١٧، المطبعة الأزهرية .

الأول : الـبديع ، **والقسم الثاني** : المحاسن ، وجعل البديع متناولاً خمسة أبواب هي :-

الاستعارة، والتجنيس، والمطابقة، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها، والمذهب الكلامي .

وأمـا المحاسـن فهي الالتفات ، والاعتراض ، وحسن الرجوع ، وحسـن الخروج ، وتأكيد المدح بما شبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذي يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط في الصفة ، وحسن التشبيه ، ولزوم ما يلزم ، وحسن الابتداء .

ومن الملاحظ أن هذه الأبواب التي أدمجت تحت البديع والمحاسن ، بعضها يندرج تحت علم المعاني وبعضها تحت البيان كما لا يخفى .

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب قد أفاد من جاء بعد ابن المعتز كقدامة بـن جعفر ، وأبو هلال العسكري ، والآمدي ، وابن رشيق ، ويعد العلماء هذا الكتاب أول خطوة علمية في دراسة البلاغة في كتاب مستقل.

والسبب في وضع هذا الكتاب هو الردُّ على من زعم أن البديع أمر جديد في الأدب العربي وبيان أنه موجود في الأدب العربي من قديم .

وفـي القـرن الرابع الهجري كان من أبرز العلماء **قدامة بن جعفر** (ت ٣٣٧ هـــ) صـاحب كتاب نقد الشعر ، وقد تناول في هذا الكتاب كثـيراً من المحسنات البديعية بالمعنى العام للبديع من كون هذه المحسنات أوصـافاً للشعر ومما ذكره من هذه المحاسن الترصيع والتصريع ، والغلو

والتشبيه ، وصحة التقسيم ، وصحة التفسير ، وصحة المقابلة ، والمبالغة ، والالتفات والإشارة ، والإرداف ، والتمثيل ... الخ .

ومن أبرز من ألف كتباً تناولت العديد من رسائل البلاغة في هذا القرن الآمدي **الحسن بن بشر** المتوفى سنة ٢٧١ هـ " صاحب كتاب " الموازنة بين أبي تمام والبحتري " وقد عرض لكثير من النصوص ، ثم شعرهما ، وغيره موازناً بين كل منهما .

وكذلك **القاضي الجرجاني** ت (٣٩٦هـ) في كتابه الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وقد أورد في الكتاب كثيراً من المصطلحات التي تخص في البلاغة كالتشبيه والاستعارة ، وعرض بإفاضة كثيراً من المسائل النقدية التي أظهر من خلالها عيوب الشعر ومحاسنه .[١]

وجاء بعد ذلك **أبو هلال العسكري** المتوفى سنة ٣٩٥ هـ بكتابه الصناعتين " صناعة الشعر والنثر " الذي يعد أول كتاب له الأهمية في ميدان البلاغة ، ونقطة تحول النقد إلى بلاغة ، وقد امتلأ هذا الكتاب بالحديث عن أنواع كثيرة من الفنون البلاغية ، فقد تكلم عن الفصاحة والبلاغة والإيجاز ، والاطناب ، وأجود الكلام وأردئه ، وحسن التأليف ، والتشبيه الجيد ، والردئ والاستعارة ، والتجنيس ، والمقابلة ، والمبالغة ، والمماثلة .

---

١ - ينظر : الوساطة صـ ٤١ طـ - الحلبي .

والجديـر بالذكـر أنَّ أبا هلال قد استفاد كثيراً ممن سبقه ، وخاصة الرماني (ت ٣٨٦ هـ) في كتابه النكت في إعجاز القرآن ، كما تحدث عن السرقات الشعرية ، واعتمد في كتابه على المنهج التعليمي التقليدي من حيث التعاريف ، والتقاسيم ، وقد أضاف إلى ما عُرف من فنون البديع حوالي سبعة أنواع أخرى ليصل عدد أنواع البديع عنده إلى خمسة وثلاثين لونا.

ومن البارزين في مجال الدراسات البلاغية في أوائل القرن الخامس الهجري **الباقلاني** ت / ٤٠٣هـ في كتابه إعجاز القرآن ،وضعه لبيان وجه إعجاز القرآن الكريم ، فقد تناول فيه كثيراً من خطب العرب وشعرها؛ ليدل على أن القرآن له سمات خاصة في التعبير لأنه لم يرتق إلى مرتبته أي كلام بشري . ومن خلال عرضه لهذه النماذج تكلم عن مزايا البلاغة كالتشبيه والاستعارة [١] وغير ذلك:

وجاء بعد ذلك الشريف الرّضي (ت ٤٠٦ هـ) ؛ ليضم لنا كتابين في البلاغة هما :-

١- تلخيص البيان عن مجازات القرآن . وفي هذا الكتاب عرض للآيات القرآنية التي خرجت عن معناها الحقيقي الى معنى آخر مجازي . وذكر ذلك بصورة مجملة ، فلم يتعرض لنوع المجاز فيما ذكره من كونه تشبيهاً أو استعارة أو كناية أو مجازاً مرسلاً على نحو ما عرف بعد ذلك في الدراسات اللاحقه .

---

١ - ينظر : إعجاز القرآن للباقلاني صـ ١٠٥ ، ١٠٦ ط - صبيح

٢- كمـا وضع كتاباً آخر أسماه المجازات النبوية ، جمع فيها الكثير من أحاديـث النبي ﷺ سـائراً في ذلك على نفس المنهج الذى سلكه في مجازات القرآن.

والقاضـي عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥هـ كتاب المغنى في أبواب التوحيد تكلم فيه عن العديد من مسائل البلاغة .

وممن كان له باع طويل في هذا الميدان كذلك **ابن رشيق القيراونى** ت سـنة ٤٦٦هـ الـذى وضع كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، وتألـيف الكـلام، وتكلـم في خلال ذلك عن المجاز والكناية والاستعارة والتشبيه ، وذكر الكثير من أنواع البديع المعروفة .

وجاء **ابن سنان الخفاجي** المتوفى سنة ٤٦٦هـ صاحب كتاب سر الفصـاحة الذى تحدث فيه عن أصول وقواعد بلاغية ظلت تتداول حتى الآن فـي مؤلفات البلاغة ، ومن أبرز هذه الأصول : حديثه عن البلاغة والفصاحة التي انتفع بها كل من جاء بعده ، كما تكلم عن الإيجاز وغيره .

ثـم جـاء إمام البلاغين بحق .. العالم النحوى **عبدالقاهر الجرجاني** المتوفى سنة ٤٧١هـ تلك القمة التي لا تقارن بغيرها ، فقد انفرد بالاتجاه التحليـلي الـنقدى وذلـك بـتعمقه في عرض المسائل والبحث عن العلل والأسباب التي تؤيد صدق ما يذكره ، مع الإكثار من الشواهد ، والإلحاح على الفكرة ، وإعادتها أكثر من مرة بأكثر من أسلوب لتكون قريبة الفهم .

وامـــتاز عبدالقاهر بذوقه وحسه المرهف .. فقد قام بعرض وتحليل النظم القرآني للوقوف على دقة إعجازه .

ويذكـــر **العلـــوى** المـــتوفي ســـنة ٧٤٩هـــ صاحب كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة أن عبدالقاهر واضع علم البلاغة ، وقد وضع في الـــبلاغة كتابيـــن: **الأول : كتاب : دلائل الإعجاز** ، وقد تناول في أحدهما مسائل علم المعاني فتكلم عن دقة النظم ، والعلاقات التي تربط بين الجمل ، وبـــنى الكتاب كله على إثبات أن بلاغة الكلام ترجع إلى النظم الذي هو توخـــي معاني النحو فيما بين الكلم ؛ ليصل من ذلك إلى أن إعجاز القرآن الكـــريم كـــان بسبب حسن نظمه وجودة تأليفه .. إلخ ، وقد اشتمل الكتاب علـــى مســـائل علـــم المعـــاني من التقديم والتأخير ، والفصل والوصل ، والإيجاز والفصاحة والبلاغة .. الخ كما تكلم عن الكناية والاستعارة أيضا.

أما كتابه الثاني : إسرار البلاغة فقد تناول فيه بالتفصيل مسائل علم البيان من التشبيه والتمثيل والاستعارة والمجاز ، وتكلم كذلك عن أنواع من البديع وبين حسن كل ذلك .

وكـــان اهـــتمام عـــبدالقاهر بالمعاني واضحاً ، وأكد على ضرورة الالـــتزام بالجودة الفنية ، وأن الحكم هو الذوق فيما تحيط به المعرفة ولا تؤديـــه الصنعة من إحساس بجمال لفظ في موضع خاص أو فطنة إلى قوة رابطة أو أداة في جملة أو لبيت شعر دون غيرها.

ولا يـزال منهج عبدالقاهر إلى اليوم محط أنظار النقاد والأدباء . . وقـد لخـص الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ هـ كتابي عبدالقاهر في كتاب أسماه نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز .

وفـي القـرن السـادس جـاء **العلامة جار الله الزمخشرى** ت سنة ٥٣٨هـ الذى وضع كتابه الكشاف في التفسير ، والذى اعتمد فيه على ما قدمـه عبدالقاهر من دراسة لمصطلحات علوم البلاغة ، وقام بتطبيق تلك المصطلحات على كتاب الله – سبحانه وتعالى – للكشف عن أسرار إعجاز القرآن ، وأنه كان ببلاغته وفصاحته ، فتناول الكثير من التشبيه والتمثيل ، وتكلـم عـن أسـرار الفصـل والوصل ، والقصر ، والتقديم والتأخير ، والإيجـاز والفصـاحة ، والـبلاغة، والكناية وغير ذلك عارضاً كل ذلك بصورة تطبيقية على ما احتوته الآيات الكريمة من هذه الألوان .

وفـي أوائل القرن السادس الهجرى يأتى **السكاكى** م سنة ٦٢٦ هـ بكـتابه مفتاح العلوم الذى تناول فيه مجموعة من العلوم العربية كالنحو ، والصـرف ، والـبلاغة ، والمنطق ، وقد جعل السكاكى القسم الثالث من كـتابة خاصـاً بعلوم البلاغة الثلاثة ، حيث قسم البلاغة إلى علم المعانى والبـيان ومتمم لهما وهو علم البديع ، وقد أخذ كلام من سبقه من العلماء مـثل عـبدالقاهر ، والزمخشرى وغيرهما ، وأخذ هذه المصطلحات التى تناولها العلماء قبله ، ووضع لها القواعد والتقسيمات التى تضبط هذا الفن ، وجعله علما مستقلاً غاية الاستقلال.

وفـــي ســـبيل وضع هذه القواعد وضبطها ، كان لابد للسكاكى من الإقلال من ذكر الأمثلة ، سوالبعد عن التحليل والعرض الذى امتاز به من سبقه كعبدالقاهر.

والســـكاكى وإن كان له الفضل فى ضبط قواعد البلاغة وتحديدها وتبويـــبها وتقسيمها إلا أنه يؤخذ عليه عدم الإكثار من الأمثلة وتحليلها كما يؤخـــذ علـــيه التعرض لكثير من النواحى الفلسفية والمنطقية ، عن طريق تقعـــيده لمصطلحات البلاغة، وقد غلب عليه ذلك نظراً لثقافته التى تأثرت بالفلسفة إلى حد كبير.

وكـــان القســـم الثالث من مفتاح العلوم مجالاً خصباً للعلماء بعد عـــبدالقاهر، أذ جمـــدت الدراسات البلاغية بعد ذلك ، ووقفت كثيراً عند تلخـــيص المفـــتاح ، أو شـــرحه ، أو وضع الحواشى ، والتقارير عليه ، والمكتبة العربية زاخرة بهذه الشروح والمختصرات.

وكان **الخطيب القزوينى** المتوفى سنة ٧٣٩هـــ قد أولع بهذا الكتاب فوضـــع تلخيصـــاً للقسم الثالث من المفتاح فهذّبه وعدّل ترتيبه وزاد فيه بعـــض الشـــواهد ، ثـــم أتبعه بعد ذلك بكتاب آخر أسماه الإيضاح ، جعله كالشرح لهذا التلخيص ، ليوضحه ، ويذكر فيه ما تركه السكاكى من كتابى عـــبدالقاهر ، وامتاز الإيضاح بشئ من التفصيل ، وهو أفضل من أسلوب الســـكاكى ، وإن كان يسير على نهجه ، كما أن عبارته أسهل ، وشواهده أكثر .

ووضــــع **سعد الدين التفتازاني** م ٧٩١ هـ كتابه المختصر ، الذي اختصر فيه القسم الثالث من المفتاح ، ووضع أيضا كتابا أسماه ، " المطول " وقـد شــرح فــيه تلخــيص المفتاح ، وسلك مسلك التفتازاني في شرح التلخــيص كُلٌ من **بهاء الدين السبكي** م ت / ٧٧٣هـ في كتابه " عروس الأفــراح " **وابن يعقوب المغربي** م ١١١٠هـ في كتابه " مواهب الفتاح " إلــى غــير ذلــك ، وكل هذه الكتب تسير على نهج السكاكي ، من حيث التقعــيد، والتبويب ، وخلط البلاغة بالكثير من المسائل الفلسفية ، مما أدى إلــى تحــول البحث البلاغي، إلى مجموعة من القواعد والضوابط ، دون الوقوف عند النماذج لتحليلها ، وكان ذلك العمل في حينه مناسباً لعصره ، وإن كــان هناك من يعيب السكاكي على مسلكه في التقعيد والتبويب ، فإن له الفضل في حفظ قواعد البلاغة وضبط مسائلها.

وممــن كان لهم جهد أيضا **ابن الأثير** ت / ٦٣٧ هـ صاحب كتاب المثل السائر الذي أشتمل على العديد من أبواب البلاغة وفصولها.

أمــا فــي العصــر الحديث فقد ظهرت عدة كتب تدافع عن البلاغة العربــية وضرورة تخليصها من الجمود والتعقيد الذي أصابها ، وعرضها في ثوب جديد رائق يجذب الناظر فيها ويغري بدراستها والاستفادة منها .

ومــن أبــرز هذه الكتب : " فن القول مناهج تجديد " **للأستاذ أمين الخولي** وكتاب " الأسلوب " **للأستاذ أحمد الشايب** ، " ودفاع عن البلاغة "، **للأستاذ / أحمد حسن الزيات** وغير ذلك .

دراسات حول
إعجاز القرآن الكريم

دراسات حول إعجاز القرآن الكريم

تعددت الدراسات التي تتعلق بكتاب الله عز وجل ، فكل عالم تناول هذه الدراسة بما يخدم مجال تخصصه ، من مفسرين ، ولغويين ، ونحاة ، ومتكلمين ، وغيرهم ، وقد وضعتْ عدة كتب ، ورسائل تناولت قضية الإعجاز وآراء العلماء في ذلك ، وسنحاول إيجاز القول في ذلك عند بعض هؤلاء العلماء ، وقد تحدى الله العرب بأن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بسورة منه فقال جلّ شأنه ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[1] وقد عجزوا عن معارضته وهم النهاية في الفصاحة والبلاغة ، والغاية في الطلاقة ، مع توفر دواعيهم لذلك ، ولو حدثت تلك المعارضة لاشتهر ذلك ولكن أحداً لم يقل بذلك إطلاقا فبطلت المعارضة ولو تمكنوا من ذلك لما عرّضوا أنفسهم للقتل مع سهولة المعارضة .

وسنتناول آراء العلماء في الإعجاز بإيجاز كما يلي :-

(١) مذهب الصرفة :-

وهذا رأي النظام وأبي اسحاق النصيبي ، وهما من المعتزلة ، واختاره الشريف المرتضى من الإمامية ، ويذكر الخطابي أن معنى ذلك أن الله صرف همم القوم عن أن يأتوا بمثله ، ولولا هذا الصرف لكانوا

---

١ - سورة البقرة الآية رقم ٢٣

قادرين على معارضته، وصَرْفُ الهمم وتوجيهها لجهة غير المعارضة يعد معجزاً في ذاته ؛ لأنه أمر خارق للعادة.

ويفسر العلوي معنى الصرفة بما يلي :-

(أ) مسلوبة دواعيهم إلى المعارضة مع أن أسباب توفر الدواعي في حقهم حاصلة مع التقريع بالعجز ، وترك المراتب العالية ، والتكليف بالخضوع ومخالفة الهوى.

(ب) أنهم سُلِبوا العلوم المطلوبة في الإتيان بما يقارب القرآن ويشاكله ، بمعنى أن الله أزال هذه العلوم عن أفئدتهم حتى لا تحصل المعارضة.

(جـ) أن الله منعهم قسْراً وألجأهم إلى عدم المعارضة ، مع كونهم قادرين، وسلب قواهم عن ذلك.

وهذا الرأي باطل لأنه يطعن في الإعجاز ، لأن معنى صرف الله للعرب وسلبهم القدرة وتحديهم معناه: أن يُتركوا وقدرتهم حتى يثبت عجزهم ، مع ما توفر لهم من الأسباب والمقدرة على البيان ؛ ولذا فإن الخطابي يرفض هذا المذهب لتنافيه مع ما تدل عليه آية التحدي﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [1].

---

١ سورة الإسراء الآية رقم ٨٨

فاجتماعهم متظاهرين معناه أن يعين بعضهم بعضاً ، ولا يتحقق ذلك العـــون إلا إذا كانت هممهم ومقدرتهم موجودة متعاونة للوصول إلى الغاية المنشودة وهي المعارضة .

كمـــا يقول **عبدالقاهر** – لإبطال هذا الرأي – فلو أنهم أدركوا أنهم صــــاروا عاجزيـــن لقالوا للرسول : إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به ولكـــنك قـــد سحرتنا وحلت بما جئت به بيننا وبين مقدرتنا على معارضة وتذاكروا ذلك فيما بينهم وشكوه لبعضهم فقالوا :

ما لنا قد نقصت قرائحنا وكلَّت أذهاننا ؟ ولكن ذلك لم يحدث .

ولو كان الإعجاز بالصرفة لما قيل لهم : إني جئت بما لا تقدرون على مثله ، وإنما يقال : أني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام تستطيعونه وأمنعكم إياه.[١]

- ولـــو كـــان القرآن معجزا بالصرفة لما استعظموا فصاحته ، وبلاغته ، وتعجبوا منها كما حدث مع الوليد .
- وكذا القول بالصرفة يؤدى إلى نقصان عقولهم وتغييرها ، ولم يقل أحد بتغـــير عقولهم بعد التحدي بل ظلت كما هي ، وظلت حالهم في البلاغة كما هي بعد نزوله ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله.[٢]

---

١ – ثلاث رسائل في الإعجاز ص ١٣٣.
٢ – راجع الطراز ٣ / ٣٩٤.

* ويذكر **السيوطي** وجها آخر للرد عليهم فيقول : لو صح القول بالصرفة لكان ذلك مقيدا بزمن التحدي ، ولكان القرآن بعد عصر النبوة غير معجز ؛ لانتهاء زمن الصرفة وكل هذه الأمور تظهر بطلان هذا المذهب .

٢) ويرى البعض أن القرآن معجز لاشتمال على الأمور الغيبية في بعض آياته كقوله تعالى ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ... الآية﴾ [١] ويذكر المؤرخون أن الروم غلبت الفرس بعد تسع سنين من نزول الآية ، كما انتصر المسلمون في نفس الوقت في بدر ، ويذكر الخطابي [٢] أنه لا يمكن الاقتصار على هذا وجعله وجه الإعجاز ، ولكن يمكن أن يقال أن هذا نوع من أنواع إعجازه ؛ لأنه ليس بالأمر العام الموجود في كل القرآن حتى يكون الإعجاز راجعا إليه ، والمعروف أن الإخبار بالغيب وقع في بعض الآيات دون بعض فيؤدي إلى خلو الآيات التي لم تشتمل على أمور غيبية من الإعجاز .

٣- ويرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع لأسلوبه المخالف لجميع أساليب الكلام كأسلوب الشعر أو الخطابة .

ولا يرتضي **العلوي** ذلك إلا إذا كان المراد بأسلوب الكلام أسلوبه الخاص المشتمل على الفصاحة والبلاغة ، لا مطلق الأسلوب الذي

---

١ سورة الروم الآتين (١٠٢)
٢ - ينظر : ثلاث رسائل صـ ٢٣ ، ٢٤ .

يتســاوى فيه القرآن مع غيره ، كما لم يرتض القول بأن الإعجاز راجع إلــى خُلُوّ القرآن عن المناقضة والتعقيد ؛ لأن معنى ذلك أنه لو وجد فى الشــعر أو النثر مقدار سورة من القرآن خال من التعقيد والمناقضة لقيل: إن هذا معجز كالقرآن وهذا باطل، وقد ثبت تعجبهم من حسن نظم الكلام.

٤) ويرى البعض أن وجه الإعجاز راجع إلى اشتمال القرآن على الحقائق والأسرار التي لا تزال غضه طرية لا تنتهى على مر الدهر .

- كما يرى البعض أن إعجاز القرآن يرجع إلى اشتماله على الاستعارة ، والتشبيه ، وغير ذلك من الأمور البلاغية ، وقيل معجز بما تضمنه من مــزايا بديعة فى فواتحه ومقاصده ، وخواتيمه فى كل سورة[١] ، ويمكن جعــل هذه الأمور داخلة فى الإعجاز لا أن يكون كل أمر منها مستقلا بذاته ليكون هو الوجه فى الإعجاز دون غيره .

٥) والمذهــب الحق فى ذلك هو : القول بأن القرآن معجز بحسن نظمه ، وفصــاحته ، وبلاغــته الــتى فاقــت تصورات البشر ، وتنقطع دونها أطمــاعهم . ويفســر ذلــك العلــوى فيقول : إن الجهابذة من أهل هذه الصناعة قد عولّوا على ثلاث خواص جعلوها هى الوجه فى الإعجاز.

---

١ - راجع الطراز ٣٩٥ – ٤٠٥.

الخاصية الأولى :

الفصاحة في ألفاظه ، وخلوها من التعقيد ، والثقل ، وخفتها على الألسنة، وجريانها عليها كأنها السلسال رقةً وصفاءً وعذوبةً وحلاوةً .

الخاصية الثانية :

البلاغة في المعاني بالإضافة إلى مضرب كل مثل مساق كل قصة وخبر، وفي الأوامر والنواهي ، وأنواع الوعيد ، ومحاسن المواعظ..الخ

والخاصية الثالثة :

جودة النظم وحسن السياق ، فقد نظم على أتم نظام ، وأحسنه ، وأكمله، ويدل على ذلك كون التحدي وارداً على جهة الإطلاق ولم يقتصر على جهة خاصة من تلك دون الأخرى ، وإنما قال الله – عز وجل –: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾(١) أي بكل ما اشتملت عليه من الفصاحة ، والبلاغة ، وحسن النظم ، وجودة السبك .

وقد ذكر **الخطابي** : أن القرآن الكريم تميز عن أساليب أرباب البيان؛ لأنه جمع بين طرقهم جميعاً في أصناف كلامهم ، لأنّ كلامهم يجئ على ثلاث مراتب : **أولها** : البليغ الرصين ، **وثانيها** : الفصيح القريب السهل ، **وأدناها** الجائز الطلق المرسل ، وتلك أقسام الكلام الفاضل المحمود ، وقد حازت بلاغات القرآن الكريم من كل قسم من هذه الأقسام حصةً ، أخذت كل نوع من أنواع شعبه ، فانتظم لها بامتزاج هذه الأوصاف نمط من

١– سورة البقرة من الآية رقم ٢٣ .

الكلام بجمع بين صفتي الفخامة والعذوبة ، واجتماع الوصفين في نظمه مع ثبوت كل واحد منهما على الآخر فضيلة خصّ بها القرآن ليكون بينةً لنبيّه.

ثـم يقـول : واعلـم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني ‥ واضعا مما ذكر فيه موضعه الذي لا يرى شئ أولى منه ، ولا يرى في صورة العقل أمر ألـيق مـنه مودعا أخبار القرون الماضية ، وما نزل من مثلات الله بمن عصـى وعاند منهم ، منبئا عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الباقية من الـزمان ، جامعـاً في ذلك بين الحجة ، والمحتج له ، والدليل ، والمدلول علـيه ؛ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه ، وأنبأ عن وجوب ما أمر به ونهى عنه ، والجمع بين شتات هذه الأمور ؛ حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عـنه قـوى البشر ، ولا تبلغه قدرهم ، فانقطع الخلق دونه وعجزوا عن معارضته .[١]

ويذكـر أن عمودَ بلاغته هو : وضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه ، إمّا تبدل المعنى فيفسد الكلام ، وإما ذهاب الرونق الذي يكون به سقوط البلاغة .

ويذكر **الباقلاني** : أن القرآن أعلى منازل البيان ، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه ، وطرقه ، وأبوابه ، من تعديل النظم وسلامته، وحسـنه ، وبهجـته ، وحسن موقعه في السمع ، وسهولته على اللسان ،

---

١ – ثلاث رسائل (٢٨) .

ووقوعه في النفس موقع القبول ، وتصوره تصور المشاهد ، وتشكله على جهته ؛ حتى يحل محل البرهان ودلالة التأليف مما لا ينحصر حسنًا وبهجة وسناءً ورفعةً وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الواقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويقلق ويؤنس ، وله مسالك في النفوس لطيفة ، ومداخل إلى القلوب دقيقة.[١]

وأما **عبد القاهر الجرجاني** فإنَّ رأيه [٢] يتلخص في أن القرآن لم يكن معجزاً بكلماته المفردة ولا بمعاني الكلمات التى وضعت لها في اللغة، ولا بتركيب الحركات والسكنات ، ولا بقواطعه وفواصله ، وذكر أن القول بأن القرآن معجز بذلك ناشىء من سوء المعرفة ، ومن يزعم أن البرهان الذى بان لهم ، والروعة التى دخلت عليهم فأزعجتهم حتى قالوا : أن له لحلاوة .. الخ إنما كان الشيء راعهم من مواقع حركاته ، ومن تركيب بينها وبين سكناته أو لفواصل في آخر آياته ؟.

وهل قال **ابن مسعود** عنه "لا يُتْفَه ولا يشان "وقال " إذا وقعت في آل حم وقعت في روضات د مثات اتأنق فيهن " يعنى يتتبع محاسنهن ، هل قال ذلك من أجل أوزان الكلمات ، ومن اجل الفواصل في آخر الايات.ثم يقول :ولا يمكن جعل الاستعارة الأصل فى الإعجاز حتى لا يكون الأعجاز في آيات معدودة منة ثم يقول :

---

١ – إعجاز القرآن للباقلاني (٢٠٩)

٢ – ينظر : دلائل الإعجاز – تحقيق / محمود محمد شاكر صـ ٣٨٥ : ٤٢٠ ، نشر مكتبة الخانجي – غير مؤرخة .

"فـإذا ابطـل أن يكون الوصف الذى أعجزهم من القرآن شئ مما عددناه لم يبق إلا أن يكون في النظم والتأليف الذى هو توخي معاني النحو فـيما بيـن الكلـم " وأخذ في كتابه دلائل الإعجاز يبين كيفية هذا النظم والفـروق بين التراكيب ليصل في نهاية الأمر إلى أنّ إعجاز القرآن إنما كان بحسن نظمه وبلاغته .

ويذكـر أنـه لا يقصد بالنظم مجرد وضع كلمات بجوار بعضها أو وضع جمل بلا ترتيب مقصود ، وإنما المراد وضع كل كلمة مع ما يناسبها وان ترتب العبارات حسب ترتب المعاني في الفكر .

وجه آخر فى الإعجاز :

ذكـر **الخطابى** وجها آخر فى إعجاز القرآن [١] غير ما تقدم وهو : صـنيع القـرآن بالقلوب وتأثيره فى النفوس ، فإن القرآن إذا قرع السمع وصـل إلى القلب لذة ، وحلاوة ، وروعة و مهابة ، ومن ثم تستبشر به الـنفوس ، وتنشرح له الصدور ، وهو يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها ، فكم من عدوٍّ للرسول ﷺ أقبل يريد النيل منه – علـيه السلام – فيسمع آيات القرآن، فيتحول عن رأيه ويدخل فى دينه كما حدث مع عمر بن الخطاب ﷺ وغيره.

ومن ذلك ما حدث مع **الوليد بن المغيرة** حين وصف القرآن بأنّ له حلاوة وأن عليه طلاوة .. الخ

---

١ – ثلاث رسائل صـ ٧٠ ، ٧١.

وقد سمعته الجن فلم تتمالك أن قالت ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[1].

ويقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[2].

---

١ – سورة الجن الآيتان (١ ، ٢) .

٢ – سورة الأنفال من الآية رقم (٢) .

الفصاحة والبلاغة

عند البلاغيين

لغة ، واصطلاحاً، وتطبيقاً

الفصاحة والبلاغة

أولاً : معنى الفصاحة :

تطلق الفصاحة في اللغة على عدة معان تدور كلها حول الإبانة وكون الشئ واضحاً جليا لا يحول دون معرفته أدنى لبس ، ومن ثم تطلق الفصاحة على البيان ، فاللفظ الفصيح : ما يدرك حسنه بالسمع ، بأن يكون ظهر الدلالة على معناه فيتبادر فهمه إلى ذهن المخاطب فضلا عن كونه مألوس الاستعمال بين الكتاب والشعراء لمكان حسنه واستعمال العرب الخلص له.

ولذا يقال : فصح الأعجمى – بضم الصاد – أى تكلم بالعربية وفهم عنه ما يقول ، وأفصح : تكلم بالفصاحة ، ويوم فصح – بكسر الفاء – ومفصح : بلا غيم ولا قر ، وأفصح الصبح : استبان ضوؤه ، وأفصح بالشئ : صرح به.[1]

والبلاغيون يبحثون فى فصاحة الكلمة لأنها اللبنة الأولى فى بناء الجملة فمتى سلمت من العيوب المخلة بالفصاحة سلمت الجملة من ذلك وبالتالى يسلم الكلام كله ، كما يبحثون فى فصاحة الكلام ليكون واضحا بينا مأنوسا للمخاطب ويبحثون كذلك فى كيفية تحقق الفصاحة لدى المتكلم لأنه الذى تؤخذ عنه المعانى المراده والأغراض.

---

(١) القاموس المحيط ١/٢٤٨ والمطول ١٥.

فصاحة الكلمة :

يراد بفصاحة الكلمة : كونها مركبة من حروف متآلفة متناسقة يسهل نطقها من غير مشقة مع وضوح معناها وموافقتها لقوانين الصرف وكثرة تداولها بين الذين اشتهروا بالفصاحة.

ويتحقق ذلك بالذوق السليم والإلمام بمفردات اللغة ومعرفة المستعمل منها والمهمل لغرابته أو ثقله ، مع استيعاب قوانين الصرف.

وقد وضع البلاغيون شروطا يتحقق بها كون الكلمة فصيحة وهي :

١- **خلوصها من تنافر الحروف** ، ليسهل النطق بها ولا يشعر المخاطب بكراهية السمع لها ، وتنافر الحروف : وصف في الكلمة يوجب ثقلها على اللسان وعسر النطق بها مع كراهة السمع لها.

والتنافر نوعان : تنافر خفيف كالنقنقة لصوت الضفادع ، والنقاخ للماء العذب البارد ، ومستشزرات في قول امرئ القيس :

غدائره مستشزرات إلى العلا تضل العدارى في مثنى ومرسل

مستشزرات بمعنى مرتفعات يصعب النطق بها لاجتماع التاء والشين والزاى فيها ، ومن ذلك كلمة اطلخم بمعنى اشتد في قول أبي تمام.

قد قلت لما اطلخم الأمر وانبعثت عشواء تالية غبسا دهاريسا

فان اطلخم كلمة ثقيلة على اللسان كريهة في الذوق غليظة في السمع مع غرابتها فإن مستشزرات بمعنى مرتفعات يصعب النطق بها لاجتماع التاء والشين والزاى فيها.

ومن ذلك الجرشى بمعنى النفس ، العشلوج بمعنى الغصن.

والتنافر الثقيل مثل الظش للمكان الخشن ، والهعخع لنبت ترعاه الإبل وذلك من قول أعرابي سئل عن ناقته فقال : تركتها ترعى الهعخع.

هـــذا ويـــرى البعض أن من أسباب ثقل الكلمة طول حروفها كقول الشاعر :

إن الكـــريم بـــلا كـــرام مـــنهم ... مـــثل القلـــوب بـــلا سويداواتها

فقد طالت الحروف في سويداواتها فثقلت على اللسان ، ولكن يجب أن يعلـــم أن طـــول حـــروف الكلمة ليس موجبا لثقلها في كل حال ، فالقرآن الكـــريم – وهـــو المعجز بفصاحته وبيانه – قد وردت فيه كلمات طويلة ولكـــنها في غاية الفصاحة لسهولة نطقها واستعذاب سماعها كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾.[1]

هـــذا ، ويرى بعض العلماء أن سبب التنافر في الكلمة راجع إما إلى بعـــد مخـــارج حروف الكلمة بحيث يكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالطفرة ، وإما إلى قرب تلك المخارج بحيث يكون الانتقال من أحدهما إلى الآخر كالمشي في القيد.

ولكـــن ابن الأثير يرد على هؤلاء : بأن التنافر غير راجع إلى بعد مخارج الحروف أو قربها وذلك لأننا نجد كلمات تركبت من حروف قريبة المخارج وغير متنافرة مثل (الجيش – الشجى) ومن ذلك في القرآن الكريم

(١) سورة البقرة ١٣٧.

قوله تعالى : ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ﴾(١) وجاء من البعيد المخارج ما ليس بمتنافر كذلك مثل (علم – بلغ – ملح – غلب) قال سعد الدين فى المطول :

ومن ثم فإن مرجع التنافر فى الكلمة هو الذوق وليس قرب المخارج أو بعدها "فكل ما عده الذوق الصحيح ثقيلا متعثر النطق فهو متنافر سواء كان من قرب المخارج أو بعدها أو غير ذلك.(٢)

٢. خلو الكلمة من غرابة الاستعمال :

كـون الكلمة وحشية غير ظاهرة المعنى ولا مأنوسة الاستعمال عند العرب الفصحاء فيحتاج فى إدراك معناها إلى البحث وهى قسمان :

أ-أن تكـون الكلمـة محتاجة لمعرفة معناها إلى البحث والتنقيب فى كتب اللغـة لكونهـا قليلة الاستعمال عند العرب الخلص ، وذلك مثل تكأكأتم بمعـنى اجتمعـتم في قول عيسى بن عمر النحوى عندما اجتمع الناس حوله : ما لكم تكأكأتم على كتكأكئكم على ذى جنة افرنقعوا ، فإن تكأكأ وافـرنقع – بمعنى انصرف – لا يعرف معناهما إلا بالرجوع إلى كتب اللغـة ولذا حكم بغرابتهما، ومنه المشمخر بمعنى الجبل العالى فى قول الشاعر يصف أسدا :

فخـر مدرجـا بـدم كـأنى ... هدمـت بـه بـناء مشـمخرا

---

(١) سورة يس ٦٠.

(٢) المطول ص ١٧.

ب- مــا يؤدى إلى حيرة السامع في فهم المعنى المقصود من الكلمة لكونها دالة على معنيين أو أكثر بلا قرينة تحدد المراد منها فيخرج لها وجه بعيد ، مثل كلمة مسرج في قول الشاعر :

وفاحمــــا ومرســــنا مســــرجا

فــإن هــذه الكلمــة (مسرجاً) لم يعرف ما أريد بها حتى قيل : إنها مــأخوذة مــن قولهم للسيوف سريجية نسبة إلى سريج – وهو رجل صنع السـيوف – فيكون المراد على هذا أن أنف تلك المرأة في الاستواء والدقة كالسـيف السـريجى ، وقيل : أن الكلمة منسوبة إلى السراج (المصباح) فـيكون المـراد تشبيه الأنف بالسراج في البريق واللمعان ولذلك وصفت الكلمــة بالغــرابة لترددها بين أكثر من معنى من غير قرينة تحدد المراد مـنها، أمــا إذا وجدت القرينة الدالة على المراد من الكلمة فإنها توصف بالفصاحة عندئذ كما في قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ﴾[1] فإن (عزر) تدل على معنى التعظيم والإهانة معا لكن ذكر معها قرينة تحدد أن المـراد في الآية هو التعظيم ، وتلك القرينة هي قوله بعدها ونصروه ، إلى جانب ذكر الإيمان أيضاً.

والاحــتراز عــن الغــرابة يمكن تحصيله بكثرة الاطلاع على كلام العرب والإحاطة بالمفردات المألوفة لديهم والتي كثر استعمالهم لها ، هذا ولا يظن أن المراد بالغرابة هنا ما كان حسنا من الألفاظ لأن هناك كلمات

---

(١) سورة الأعراف ١٥٧.

استعملها العرب الخلص قديما ونحتاج منا الآن إلى معرفة معناها في كتب اللغـة أحياناً لأننا لم نستعملها كثيرا أو استعملنا مرادفها فهذه الألفاظ وإن كانـت غريـبة بالنسـبة لـنا فهي فصيحة عند القدماء ولذلك يقول السعد والوحشي قسمان :

١- غريب حسن وهو الذى لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن وحشـيا عـندهم مثل (اشمخر) بمعنى طال ، والشمخرة : الكبر ، ومن ذلك ما يعرف بغريب القرآن والحديث.

٢- غريـب قبيح وهو ما يعاب استعماله مطلقا ويسمى الوحشي الغليظ ويكـون مع غرابة استعماله ثقيلا على السمع كريها على الذوق ، ويسمى المتوعر أيضاً مثل (اطلخم).[١]

٣-أن تكون الكلمة غير مخالفة للقياس :

ومخالفـة القـياس يقصد به كون الكلمة واردة على خلاف القانون الصرفي المستنبط من تتبع لغة العرب ، وذلك كقول أبي النجم :

الحمـــد لله العلـــي الأجلـــل

فقد جاءت الأجلل مخالفة للقياس الصرفي لأن الشاعر فك الإدغام في الكلمـة بدون وجه ، والقياس فيها هنا الإدغام ، فيقال: الأجل، ومنه قول الشاعر:

مهـلا أعـاذل قد جربت من خلقي ... أني أجـود لأقـوام وإن ضننوا

---

(١) المطول ص ١٨.

القياس ضنوا بالإدغام لكن الشاعر فك الإدغام بلا مسوغ فخالف القياس ، ويندرج تحت المخالفة كل ما تنكره اللغة لمأخذ لغوى أو صرفى.

هذا ومما ينبغى أن يعلم أنهم استثنوا من مخالفة القياس ما ثبت استعماله لدى العرب من الشواذ الثابتة عن الواضع ولذا وصفت تلك الشواذ بالفصاحة لاستعمالهم لها على شذوذه مثل :

المشرق والمغرب بكسر الراء فيهما والقياس الفتح ، وعور والقياس عار لتحرك الواو وانفتاح ما قبلها ، واستحوذ ، والقياس : استحاذ ، وآل وماء ، وأصلهما : أهل وموه ، وهكذا.

ويمكن الاحتراز عن مخالفة القياس بالاطلاع على قوانين علم الصرف والإحاطة بها.

ومن العلماء من يشترط لفصاحة الكلمة مع ما سبق : أن لا تكون مكروهة فى السمع يتبرأ من سماعها كما يتبرأ من سماع الأصوات المنكرة لكن الصواب أن الكراهة فى السمع داخلة تحت الغرابة المفسرة بكون الكلمة وحشية.

ومنهم من يشترط أيضاً لتحقق الفصاحة فى الكلمة ألا تكون عامية مبتذلة، تجرى على ألسنة العامة بكثرة لأن للأدباء والشعراء ألفاظاً يستعملونها ولا يليق بهم استخدام ألفاظ جرت على ألسنة العامة.

فصاحة الكلام:

المــراد مــن فصاحة الكلام سلامته بعد فصاحة مفرداته مما يبهم معنــاه ويحول دون المراد منه ، وتتحقق الفصاحة في الكلم بخلوصه من العيوب الآتية:

١- تنافر الكلمات :

هــو كــون الكلمات ثقيلة على السمع من تركيبها مع بعضها عسرة الـنطق بهــا مجتمعة ، وتنافر الكلمات يحصل إما بتجاور كلمات متقاربة الحــروف وإما بتكرير كلمة واحدة عدة مرات في الكلام ، ومن التنافر ما هو ثقيل متناه في الثقل ، كقول الشاعر :

وقــبر حــرب بمكــان قفــر وليــس قــرب قــبر حــرب قبر

فكلمــات البيــت جاءت حروفها متقاربة المخارج ولذا كان ثقيلاً في النطق يكد اللسان ، وقول المتنبي :

فقلقلــت بــالهم الذى قلقل الحشا قلاقــل عــيس كلهــن قلاقــل

معنى قلقل حرك ، والحشا ما انطوت عليه الضلوع ، وقلاقل الأولى يريد به الناقة المتزايعة والثانية يريد بها الحركة ، ووصف البيت بالتنافر بسبب تكرار القاف واللام في الكلمات مما جعلها مكروهة في السمع عسرة على اللسان في النطق ، ومنه قول الشاعر :

والمجــد لا يرضــى بأن ترضى بأن يرضــى المعاشــر منك إلا بالرضا

فـي البيـت إخلال بفصاحة الكلام نشأ من تكرار كلمة يرضى عدة مرات مما سبب تنافرا بين الكلمات.

ومن التنافر ما هو خفيف كقول أبي تمام :

كـريم مـتى أمدحه أمدحه والورى   معـى وإذا مـا لمته لمته وحدى

جـاء الثقل في البيت من تكرار كلمة أمدحه مع اجتماع الحاء والهاء أيضـاً فـي الكلمـة إلا أن التنافر في البيت خفيف لا يتعب اللسان كثيرا كالنوع الأول ، ومنه قول الشاعر :

ومـن جـاهل بى وهو يجهل جهله   ويجهـل علمـي أنـه بـي جاهل

نشأ الثقل من تكرار يجهل في البيت عدة مرات لكن التنافر من النوع الخفيف.

وممـا يعـده الـبعض داخلا في تنافر الكلمات كثرة التكرار وتتابع الإضافات في الكلام كقول المتنبي يمدح فرسا :

وتسـعدنى فـي غمـرة بعد غمرة   سـبوح لهـا مـنها عليها شواهد

يقـول : إنهـا فرس حسنة الجرى لا تتعب راكبها كأنها تجرى في الماء ولهذه الفرس من نفسها علامات تشهد بنجابتها ، وقد جاء التنافر من تكرار حروف الجر ومجرورها مما جعل الثقل ملحوظاً ، وتتابع الإضافات كقول ابن بابك :

حمامة جرعى حومة الجندل اسجعى   فأنـت بمـرأى من سعاد ومسمع

جـرعى : أرض ذات رمـل لا تنبت شيئا ، والحومة معظم الشئ ، والجـندل: أرض ذات حجارة ، بمرأى من سعاد ومسمع أى بحيث تراك وتسمع قولك ، وفى البيت عدة إضافات هى : إضافة حمامة إلى جرعى ، وجـرعى إلى حومة ، وإضافة حومة إلى الجندل ولذا كان البيت ثقيلا فى النطق.

لكـن الخطيـب القزوينى عارض هؤلاء بقوله "إن ذلك -يعنى تتابع الإضـافات- إن أفضـى باللفظ إلى الثقل على اللسان فقد حصل الاحتراز عنه بما تقدم ، وإن لم يفض إلى الثقل فلا يخل بالفصاحة"[١] واستشهد على ذلك بقول النبى ﷺ:

الكـريم بـن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، كما أورد قـول عبد القاهر : إياك والإضافات المتداخلة فإنها لا تحسن ، فإذا سلمت من الاستكراه كانت مليحة لطيفة ، كقول ابن المعتز :

وظلـت تديـر الكـأس أيدى جآذر ... عـتاق بدنانـير الوجـوه مـلاح

وقـال سعد الدين : إن تتابع الإضافات وكثرة التكرار إن أوجبا ثقلا وشناعة فـيخلان بالفصاحة وإلا فلا جهة لإخلالهم بالفصاحة ، كيف وقد وقعا فى التنزيل ، كقوله تعالى ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾[٢] وقوله ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[٣].

---

(١) الإيضاح جـ١ ص ٧ ، ٨ وانظر المطول ٢٣.

(٢) سورة غافر ٣١.

(٣) سورة مريم ٢.

فهـذه الإضـافات لا يـبدو عليها أي ثقل ولذا كانت حسنة في غاية الفصاحة، ومن هنا يمكن القول بأن تتابع الإضافات لا يخل بالفصاحة في كـل حال وإنما يحدث ذلك إذا كان التتابع كثيرا يثقل معه نطق الكلمات ، أمـا إذا كانـت هـناك إضافات لكنها لا تثقل نطق الكلمات فإنها توصف بالفصـاحة وخـير شـاهد على ذلك ما جاء في القرآن الكريم من الآيات المذكورة.(١)

٢. ضعف التأليف :

هـو أن يكون تأليف الكلام جاريا على خلاف ما اشتهر من قوانين الـنحو المعتـبرة لدى جمهور العلماء ، وذلك كالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظـا نحو : ضرب غلامُهُ زيداً ، فإن الضمير في غلامه راجع إلى زيد وهو لم يتقدم ذكره في الكلام حتى يصح الإضمار ولكنه وقع متأخرا لفظا ورتبة ، ومنه قول حسان بن ثابت :

ولـو أن مجـدا أخلـد الدهر واحدا   من الناس أبقى مجده الدهر مطعما

يقصـد بمطعـم أحد رؤساء المشركين الذين دافعوا عن النبي ﷺ، والمعـنى: لو كان المجد سببا في الخلود لكان مطعم بن عدى أولى الناس بالخلود لأنه حاز من المجد قدرا كبيرا لم يحزه غيره ، والضمير في مجده راجع إلى مطعم وهو متأخر في اللفظ كما نرى أنه متأخر في الرتبة لأنه

---

(١) أنظر المطول ص ٢٣ ، ٢٤.

مفعول به ولذلك كان البيت غير فصيح لمخالفته قواعد النحو ، ومنه أيضاً قول الشاعر :

كسا حلمه ذا الحلم أثواب سؤدد   ورقى نداه ذا الندى فى ذرا المجد

أى من كان عادته الحلم والكرم حاز السيادة والرفعة ، فالضمير فى حلمه لذى الحلم المذكور بعد ، فهو المتأخر لفظا ومعنى وحكما ، وكذا الضمير فى نداه لذى الندى وهو متأخر عنه ، ومن مخالفة قوانين النحو : وصل الضمير بإلا فى قول المتنبى.

لم تر من نادمت إلاكا

ومن ضعف التأليف وصل الضميرين وتقديم غير الأعرف منهما على الأعرف مع أنه لا بد من الفصل فى هذه الحالة ، كقول المتنبى :

خلت البلاد من الغزالة ليلها   فأعاضهاك الله كى لا تحزنا

فقد وصل الضميرين – الهاء والكاف – وقدم الهاء على الكاف التى هى أعرف منها – وينبغى أن يعلم أن ضعف التأليف إنما ينشأ من العدول عن المشهور لدى العلماء إلى قول له صحة عند بعض العلماء لكنه ضعيف ، أما إذا خالف الكلام ما أجمع عليه العلماء – كجر الفاعل ونصب المبتدأ – فإنه يكون فاسداً على الإطلاق لا يعتد به.

ويمكن الاحتراز عن ضعف التأليف بالاطلاع على علم النحو والإحاطة بقواعده.

٣-التعقيد :

هــو ألا يكــون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد منه ، وهو ضربان :

أ-التعقيد اللفظى :

وهو ما يرجع إلى الخلل فى نظم الكلام فيؤدى إلى اضطراب المعنى وذلـك بألا يكون ترتيب الكلام على وفق ترتيب المعانى وينشأ ذلك من تقديـم أو تأخير أو حذف فى غير محله أو فصل بأجنبى بين الكلمات التى يجب أن تتصل ببعضها – كالفصل بين الموصوف والصفة أو بين المبتدأ والخـبر بحيث يوجب ذلك صعوبة فى فهم المراد من الكلام فلا يدرى السامع كيف يتوصل إلى معناه كقول الفرزدق :

ومـا مـثله فـى الـناس إلا مملكا أبـو أمـه حـى أبـوه يقاربـه

يريد أن يقول: وما مثله فى الناس حى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه، أى لا يماثله أحد فى الفضائل إلا ابن أخته الذى هو هشام.

والبيـت فى مدح إبراهيم بن هشام خال هشام بن عبد الملك ، فقال : وما مثله : يعنى ابراهيم الممدوح ، فى الناس حى يقاربه. – أى يشبهه فى الفضائل – الا مملكا : يعنى هشاماً، أبو أمه. أى أبو هشام ، أبوه : أى أبو الممدوح ، فالضمير فى أمه للملك ، وفى أبوه للمدوح ففصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ (وأبوه) وهو خبر (بحى) ، وهو أجنبى ، وكذا فصل بين (حى)

و (يقاربه) وهو نعت حي (بأبوه) وهو أجنبي ، كما قدم المستثنى على المستثنى منه ، ولذا كان البيت في غاية التعقيد كما هو ظاهر.

ومنه قول الشاعر :

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفراً رسومها قلما

المعنى : فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها ، وقد فصل بين أصبح وخبره أي (فأصبحت قفرا) وبين كأن واسمها (كأن قلمه) وبين المضاف والمضاف إليه (بعد بهجتها) وقدم خبر كان عليها وعلى اسمها وهو جملة خط ، وكل هذا – من التقديم والتأخير والفصل بين التراكيب – جعل البيت مختل النظم غامض المعنى – ومن التعقيد اللفظي أيضاً قول الشاعر :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

يريد : كيف يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت الثقلان؟ أي الإنس والجن ، يعني أنه قد جمع ما في الخليقة من الفضل والكمال ، وقد فصل بين المبتدأ والخبر وهما : أبوك محمد بأجنبي وهو – الثقلان أنت – وقدم الخبر على المبتدأ تقديما قد يدعوا إلى اللبس في قوله : والثقلان أنت، على أنه بعد هذا التعسف في التقديم والفصل لم يخل البيت من السخف والسماجة ومنه قول الشاعر :

والشمس طالعة ليست بكاسفة تبكي عليك نجوم الليل والقمر

أي والشمس ليست بكاسفة نجوم الليل وهي تبكي عليك والقمر يبكي عليك أيضاً ، لكنه فصل بين كاسفة ومفعولها الذي هو نجوم وذلك بجملة تبكي عليك.

ويمكن الاحتراز عن التعقيد اللفظي بإتقان علم النحو ومعرفة قوانينه؛ لأن الكلام الخالي من التعقيد اللفظي هو ما سلم نظمه من الخلل فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو حذف أو إضمار إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة سواء كانت لفظية أو معنوية.

ب–التعقيد المعنوي :

هو ألا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى المراد لخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول – المفهوم بحسب اللغة والذي لم يرد – إلى المعنى الثاني المقصود في الكلام ، وذلك الخلل يكون بسبب إيراد اللوازم البعيدة التي تحتاج إلى الوسائط الكثيرة مع خفاء القرائن الدالة على المراد ، بأن يكون فهم المعنى الثاني من الأول بعيدا عن الفهم عرفا[1] ومن ذلك قول العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

---

(١) فالمناط في الصعوبة يرجع إلى عدم الجريان على ما يتعاطاه أهل الذوق السليم لا كثرة الوسائط الخفية ، فإنها قد تكثر من غير صعوبة كما في قولهم : فلان كثير الرماد ، كناية عن المضياف فإن الوسائط كثيرة لكنه خال من التعقيد لجريه على العرف والذوق السليم.

يقــول : انه سيطلب الابتعاد عنهم ويفارقهم ليكون له بعد وصل دائم لا ينقطع ، وقــد كنى عن معنيين فى الشطر الثانى فأصاب فى أحدهما وأخطأ فى الثانى ، لأنه جعل سكب الدموع – وهو البكاء – كناية عما يلزم فــراق الأحبة من الحزن والكآبة فأحسن فى ذلك وأصاب ، لأنه كثيرا ما يجعل البكاء دليلا على الحزن لكنه أخطأ فى الكناية الثانية لأنه جعل جمود العين كناية عما يوجبه التلاقى من الفرح والسرور المسببين عن التلاقى ، وهذا خفى بعيد إذ لم يعرف فى كلام العرب عند الدعاء لشخص بالسرور أن يقال له : جمدت عينك ، أو لا زالت عينك جامدة ، بل المعروف عندهم أن جمــود العيــن إنــا يكنى به عن عدم البكاء حالة الحزن الشديد كقول الشاعر :

ألا إن عيــنا لــم تجــد يوم واسط ... علــيك بجــارى دمعهــا لجمــود

فالمراد بخل العين بالبكاء حين إرادته منها ولا يكون ذلك إلا فى شدة الحزن – والسبب فى خطأ الشاعر فى القياس : أنه ظن أن الجمود يراد به خلــو العين من البكاء مطلقا من غير اعتبار شئ آخر فخرج عن المألوف مــن أســاليب الــبلغاء فوقع فى هذا التعقيد الذى تسبب عن كثرة الوسائط البعيدة – بأن ينتقل من جود العين إلى انتفاء الدمع منها حال إرادة البكاء ، ومنه إلى انتفاء الدمع مطلقا ، ومنه إلى انتفاء الحزن ، ومن انتفاء الحزن إلــى السرور – ولا يخفى أن الشاعر قد طوى جميع هذه الوسائط فأورث بــطء الانتقال من المعنى الأصلى إلى المعنى المراد ، ولذا وصف البيت بالتعقيد المعنوى.

ومن التعقيد المعنوى أيضاً قول زهير :

ومـن لـم يزد عن حوضه بسلاحه يهـدم ومـن لم يظلم الناس يظلم

فقـد كنى بالظلم عن المحافظة على الحقوق ، وهذا بعيد يحتاج فى استخراجه إلـى كـد وعناء ، وهكذا كل الكنايات التى تستعملها العرب لأغـراض ويغـيرها المتكلم ويريد بها أغراضاً أخرى تعتبر خروجاً عن سنن العرب فى استعمالاتهم.

ولذلـك يقـول عـبد القاهر فى ذم التعقيد : "وأما التعقيد فإنما كان مذمومـا لأجـل أن اللفظ لم يرتب الترتيب الذى بمثله تحصل الدلالة على الغرض حتى احتاج السامع أن يطلب المعنى بالحيلة ويسعى إليه من غير الطريق كقوله (المتنبى).[١]

ولـذا اسـم أغطية العيون جفونها مـن أنهـا عمل السيوف عوامل

(والمعنى : إنما سميت أغطية العيون جفونا لأنها ضمت أحداقا تعمل عمـل السيوف) ... وإنما ذم هذا الجنس لأنه أحوجك إلى فكر زائد على المقـدار الذى يجب فى مثله ، وكدك بسوء الدلالة ، وأودع لك المعنى فى قالـب غير مستو ، بل خشن مضرس ، حتى إذا رمت إخراجه منك عسر عليك ، وإذا خرج خرج مشوه الصورة ، ناقص الحسن ، هذا وإنما يزيدك الطلب فرحا بالمعنى ، وأنسابه وسرورا بالوقوف عليه إذا كان لذلك أهلا ، وأمـا إذا كنـت معه كالغائص فى البحر يحتمل المشقة العظيمة ويخاطر بالروح ثم يخرج بالخرز.

(١) أسرار البلاغة ، شرح د. محمد خفاجى ص ٢٢٦ وما بعدها.

ولذلــك كان أحق أصناف التعقيد بالذم ما يتعبك ثم لا يجدى عليك ، ويؤرقك ثم لا يروض لك ، وما سبيله إلا سبيل البخيل الذى يدعوه لؤم فى نفســه وفســاد فى حسه إلى ألا يرضى بضعفه فى بخله ، وحرمان فضله حــتى يأبى التواضع ولين القول فيتيه ويشمخ بأنفه ، ويسوم المتعرض له بابا ثانيا من الاحتمال تناهيا فى سخفه ، أو كالذى لا يؤيسك من خيره فى أول الأمر فتستريح إلى اليأس لكنه يطمعك ويسحب على المواعيد الكاذبة حــتى إذا طال العناء وكثر الجهد ، تكشف عن غير طائل ، وحصلت منه على ندم لتعبك فى غير حاصل ، وذلك مثل ما تجده لأبى تمام من تعسفه فــى اللفظ وذهابه به فى نحو من التركيب لا يهتدى النحو إلى إصلاحه ، وإغراب فى الترتيب يعمى الإعراب فى طريقه ويضل فى طريقه كقوله :

ثانــية فــى كــبد السماء ولم يكن كاثنيــن ثــان إذ همــا فــى الغار

"ثــان ، صــحتها : ثانيا لأنها خبر يكن ، وقدم المضاف عليه على المضــاف وقرنه بالكاف بغير داع ، والمعنى : ولم يكن ثانى اثنين إذ هما فــى الغــار ، والبيت قيل فى الأفشين القائد التركى الذى كان ثانى اثنين صلبا بأمر المعتصم".

ثم يقول عبد القاهر – بعد أن يوازن بين المعانى الجيدة والتى تحتاج إلى فكر وبين التعقيد – وأرادوا بقولهم "عن الكلام البليغ" ما كان معناه إلى قلــبك أســبق مــن لفظه إلى سمعك ، أن يجتهد المتكلم فى ترتيب اللفظ وتهذيــبه، وصــيانته مــن كل ما أخل بالدلالة ، وعاق دون الإبانة ، ولم يــريدوا : أن خير الكلام ما كان غفلا مثل ما يتراجعه الصبيان ويتكلم به

العامـــة في السوق ، والمعاني الشريفة لا بد فيها من بناء ثان على أول ، ورد تال إلى سابق ، ثم يقولك : والمعقد من الشعر والكلام لم يذم لأنه مما تقـــع حاجـــة فيه إلى الفكر على الجملة ، بل لأن صاحبه يعثر فكرك في متصرفه ، ويشيك طريقك إلى المعنى ويوعر مذهبك نحوه ، بل ربما قسم فكرك ، وشعب ظنك ، حتى لا تدري من أين تتوصل ، وكيف تطلب.

ويقـــول مـــا دحا الكلام المرتب الألفاظ الواضح الدلالة (الخالي من التعقيد) وأما الملخص فيفتح لفكرتك الطريق المستوى ويمهده وإن كان فيه تعـــاطف أقام عليه المنار ، وأوقد فيه الأنوار ، حتى تسلكه سلوك المتبين لجهـــته ، وتقطعـــه قطع الواثق بالنجاح في طيته ، فترد الشريعة زرقاء ، والروضـــة غناء ، فتنال الرى وتقطف الزهر الجنى ، وهل شئ أحلى من الفكرة إذا صادفت نهجا مستقيماً ، ومذهبا قويما.[1]

ويمكـــن الاحـــتراز عـــن التعقيد المعنوي بإتقان علم البيان والإلمام بمســـائله والوقـــوف على كنايات العرب واستعاراتهم ومعرفة ما جاد منها ومـــا قـــبح ، وقد ظهر مما تقدم : أن المقصود بفصاحة الكلام تكونه من كلمات فصيحة يسهل نطقها بدون تعسر لتآلفها وانسجامها ، كما يسهل على العقـــل إدراك معانيها لترتب ألفاظها على حسب ترتيب معانيها ، والمرجع في ذلك هو الذوق السليم والإلمام بقواعد النحو وأصوله بحيث يكون الكلام واضح المعنى سهل اللفظ حسن السبك.

---

(١) أسرار البلاغة ٢٦٦ – ٢٧٥ تحقيق د. خفاجي.

فصاحة المتكلم:

ملكـــة يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح فى أى غرض كالمدح والذم والوصف .. إلخ.

والملكة : كيفية وصفة من العلم راسخة فى النفوس وثابتة ، فلو عبر عــن المقصـــود بلفظ فصيح من غير رسوخ ذلك فيه لا يسمى فصيحا فى الاصطلاح ، وقيل يقتدر دون يعبر للإشعار بأنه يسمى فصيحا سواء وجد التعبيـــر مـــنه أو لـــم يوجـــد ، لأن المدار على الاقتدار على التعبير عن المقصـــود بحيـــث لو كان شاعرا اتسع أمامه ميدان القول فى جميع فنون الشـــعر وإن كـــان ناثرا صاغ الرسائل الجميلة والخطب الممتعة فى شتى الأغراض.

ثانياً : معنى البلاغة :

يقصد بها تأدية المعنى واضحا بعبارة صحيحة فصيحة لها فى النفس أثـــر خـــلاب مـــع ملائمـــة كل كلام للموطن الذى يقال فيه والأشخاص المخاطبيـــن بـــه ، وهى فى اللغة : تنبئ عن الوصول والانتهاء ، يقال : بلغـــت الغايـــة إذا انتهيـــت إليها ، وبلغ فلان مراده إذا وصل إليه ، وبلغ الركـــب المدينة إذا انتهى إليها ، ومبلغ الشئ منتهاه وغايته ، والمبالغة فى الشـــئ : الانـــتهاء إلى غايته ، ومن هنا سميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه فيقال :

بلغ الرجل بلاغة فهو بليغ إذا أحسن التعبير عما فى نفسه.[1]

---

(١) انظر القاموس المحيط ٣/١٠٦.

وتقـع البلاغة في الاصطلاح وصفا للكلام وللمتكلم ولا توصف بها الكلمة المفردة لقصورها عن الوصول بالمتكلم إلى غرضه.

بلاغة الكلام:

الكـلام البليـغ هـو الـذي يصوره المتكلم بصورة تناسب أحوال المخاطبيـن ، ولذلـك يعـرف العلماء بلاغة الكلام : بأنها مطابقة الكلام لمقتضى حال المخاطب مع فصاحته ، ومقتضى الحال مختلف لأن مقامات الكلام متفاوتة ، فالمقام الذي يناسبه تنكير المسند إليه يغاير مقام تعريفه ، كمـا أن مقام تقديم المسند إليه أو المسند يباين مقام تأخيره ، ولبيان معنى الحال ومقتضى الحال نقول :

الحال أو المقام : هو الأمر الحامل للمتكلم على أن يورد كلامه على صورة مخصوصة دون أخرى ، بأن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المعنى خصوصية زائدة عن هذا الأصل ، وتلك الخصوصية هي ما يعرف بمقتضى الحال.

مقتضـى الحال : هو ما يدعو إليه الأمر الواقع أي ما يستلزمه مقام الكـلام وأحـوال المخاطب من التكلم على وجه مخصوص ، ولن يطابق الحال إلا إذا كان وفق عقول المخاطبين واعتبار طبقتهم في البلاغة وقوتهم فـي البيان والمنطق ، فللسوقة كلام لا يصلح غيره في موضعه ، ولسراة القـوم والأمـراء فن آخر لا يسد مسده سواه ، من أجل ذلك كانت مراتب الـبلاغة مـتفاوتة بقدر تفاوت الاعتبارات والمقتضيات ، وبقدر رعايتها

يرتفع شأن الكلام في الحسن والقبح ويرتقي إلى درجة تنقطع عندها الأطماع ، وتخور القوى ، ويعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، وتلك مرتبة الإعجاز التي تخرس عندها ألسن الفصحاء.

فالمقتضى ويسمى الاعتبار المناسب : هو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة فمثلا : المدح حال يدعو لا يراد العبارة على صورة الإطناب ، وذكاء المخاطب حال يدعو إلى إيرادها على صورة الإيجاز ، فكل من المدح والذكاء حال ومقام ، وكل من الإطناب في المدح والإيجاز مع الذكاء مقتضى ، وإيراد الكلام على صورة الإطناب أو الإيجاز مطابقة للمقتضى ، وكذا إنكار المخاطب للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم ، والتأكيد حينئذ هو مقتضى هذا الحال ، ومن ثم يكون معنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال : أن الحال إن اقتضى التأكيد جئنا بالكلام مؤكدا ، كقولنا لمن ينكر نجاح محمد : إن محمدا قد نجح ، وإن اقتضى عدم التأكيد جئنا بالكلام خاليا من المؤكدات كقولنا لخالي الذهن : محمد قدم من السفر وهكذا .

فالمراد بالمطابقة لمقتضى الحال : اشتمال الكلام على الخصوصية الزائدة على أصل المعنى ليناسب حال المخاطب ، ويشترط مع مطابقة الكلام لمقتضى الحال : كونه فصيحا ، لأن الكلام لو طابق مقتضى الحال وكان مع ذلك مخالفا لشروط الفصاحة كتنافر حروف الكلمة أو غرابتها ، أو اشتمل على تعقيد مثلا لا يسمى في تلك الحالة بليغا لعدم تحقق شرط الفصاحة فيه ، فالبلاغة إذن تتحقق بالمطابقة والفصاحة معا ، وهي ليست

منحصرة فى إيجاد معان جليلة ، ولا فى اختيار ألفاظ واضحة جزيلة ، بل تتـداول مع هذين الأمرين أمراً ثالثاً هو إيجاد أساليب مناسبة للتأليف بين تلك المعاني والألفاظ مما يكسبها قوة وجمالا.

ولتلخـيص ما سبق نقول : إن الأمر الذى يحمل المتكلم على إيراد كلامه في صورة دون أخرى يسمي حالا ، وإلقاء الكلام على هذه الصورة التى اقتضاها الحال يسمى مقتضى ، والبلاغة : مطابقة الكلام الفصيح لما تقتضـيه الحال ، وارتفاع شأن الكلام فى الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدم مطابقة الكلام للاعتبار المناسب.(١)

بلاغة المتكلم:

هـي ملكة فى النفس يقتدر بها صاحبها على تأليف كلام بليغ مطابق لمقتضى الحال مع فصاحته فى أى معنى قصده ، وتلك غاية لن يصل إليها إلا من أحاط بأساليب العرب وعرف سنن تخاطبهم فى مناظراتهم ومديحهم وشكرهم ... إلخ ليلبس لكل حالة لبوسها.

ولا بد للبليغ من التفكير فى المعاني التى تدور فى خلده بحيث تكون صـادقة ذات قيمة وقوة ليظهر فيها أثر الابتكار وسلامة النظر مع تنسيق المعـاني وحسن ترتيبها ، فإذا تم له ذلك اختار الألفاظ الواضحة المؤثرة الملائمة للغرض فألف بينها تأليفا يكسبها جمالا وقوة.

---

(١) انظر المطول ٢٦ ، ٢٧.

فالبلاغة ليست في اللفظ وحده ولا في المعنى وحده ولكنها أثر لازم لسلامة تألف اللفظ والمعنى وحسن انسجامهما.

وبالنظر إلى معنى البلاغة والفصاحة نجد أن البلاغة أخص من الفصاحة لأن الفصاحة مأخوذة في تعريف البلاغة ، وأن البلاغة يتوقف حصولها على أمرين : (هما ثمرتها).

الأول : الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المقصود.

والثاني: تمييز الكلام الفصيح من غيره ليحتذى الفصيح ويتجنب غيره.

ولذلك كان للبلاغة درجات متفاوتة تعلو وتسفل في الكلام بنسبة ما تراعى فيه مقتضيات الحال ، وعلى مقدار جودة ما يستعمل فيه من الأساليب في التعبير والصور البيانية والمحسنات البديعية ، وأعلى درجات البلاغة ما يقرب من حد الإعجاز وأسفلها ما إذا غير الكلام عنه إلى ما هو دونه التحق عند البلغاء بأصوات الحيوانات وإن كان صحيح الإعراب ، وبين هذين الطرفين مراتب عديدة بقدر ما يراعى من مقتضى الحال.

الفرق بين الفصاحة والبلاغة : يفرق بينهما من وجوه :

١- إن الفصاحة مقصورة على وصف الألفاظ والبلاغة لا تكون إلا وصفا للألفاظ مع المعاني.

٢- إن الفصاحة تكون وصفا للكلمة والكلام ، والبلاغة لا تكون وصفا للكلمة بل تكون للكلام.

٣- وأن فصاحة الكلام شرط لبلاغته ، فكل كلام بليغ فصيح وليس كل فصيح بليغا ، كالذي يقع فيه الإسهاب حين يجب الإيجاز ، فهذا مع فصاحته لا يعد بليغا لعدم مراعاة مقتضى الحال.

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال هو ما يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم حيث يقول : النظم هو توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام ، ويشرح ذلك بقوله : ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه ، مثل أن تنظر في الخبر مثلا إلى الوجوه التي تراها ، مثل : زيد منطلق ، وزيد ينطلق ، وينطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق .. وكذا في الشرط والجزاء وغيرها .. فتعرف لكل ذلك موضعه ، وتجيء به حيث ما ينبغي له.

وتنظر إلى الحروف التي تشترك في معنى تنفرد كل منها بخصوصية في ذلك المعنى فتضع كلاً من ذلك في خاص معناه ، نحو أن تأتي بـ "ما" في نفي الحال، و "بلن" في نفي الاستقبال، و "بإن" فيما يترجح بين أن يكون وبين ألا يكون، و "بإذا" فيما علم أنه كائن، وتنظر في الجمل فتعرف موضع الفصل من موضع الوصل، وفي الوصل موضع الواو من الفاء، والفاء من ثم، وتنظر في التعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار، والإظهار والإضمار فتصيب بكل من ذلك مكانه، وتستعمله على الصحة وعلى ما ينبغي له.

ثم ليس هذه الأمور المذكورة من التعريف وغيره راجعة إلى الألفاظ أنفسها ولكن تعرض لها بسبب المعاني والأغراض التي يصاغ لها الكلام بحسب موقع بعضها من بعض ، واستعمال بعضها مع بعض فرب تنكير مثلا له مزية في لفظ وهو في لفظ آخر في غاية القبح.(١)

وتنحصر البلاغة في علوم ثلاثة :

أحدهـا : ما يحترز به عن الخطأ في تأدية المعنى المراد وتمييز الفصيح من غيره وهو المعروف بعلم المعاني وأبوابه ومباحثه التي سنعرفها.

والثاني :ما يحترز به عن التعقيد المعنوي وما يتعلق به وهو المعروف بعلم البيان.

والثالث : ما يعرف به وجوه تحسين الكلام وهو المعروف بعلم البديع

وكثير من الناس يسمي هذه العلوم الثلاثة "علم البيان" باعتبار أن تلك العلوم وإتقانها يؤدي إلى تصنيف كلام جيد بين المعنى واضح الدلالة على المراد: وبعض يسمي الجميع "علم البديع" باعتبار ما يترتب على هذه العلوم من الإبداع في القول وتضمن الكلام الكثير من اللطائف والطرائف المعجبة.

هذا وترتبط البلاغة بكثير من علوم اللغة العربية الأخرى وبخاصة علم متن اللغة لأن عن طريقه يعرف الغريب من غيره ، وعلم الصرف الذي يعرف به مخالفة القياس ، وعلم النحو الذي يعرف به ضعف التأليف وغير ذلك من العلوم الأخرى التي تفيد البليغ في نظمه.

---

(١) دلائل الإعجاز وانظر المطول ٢٥ – ٣١.

علم المعاني

تعريفه – موضوعه – فائدته –
مباحثه – أحوال الإسناد الخبري –
إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر
– المجاز العقلي – أحوال المسند إليه –
أحوال المسند – أحوال متعلقات الفعل

علــم المعـــانـــي

تعريف علم المعاني :

"علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال" ، والمــراد بالعلم : القواعد المحددة الواضحة ، أو يراد به الملكة التي يقتدر بها على إدراكات جزئية ، وأحوال اللفظ العربي هي :

الأمـــــور التي تعــرض له من التقديم والتأخير والفصل والوصل والحذف والذكر .. إلخ.[1]

موضوع علم المعاني :

اللفــظ العــربي من حيث إفادته المعاني الثواني التي هي الأغراض المقصــودة للمــتكلم ، مــن جعــل الكــلام مشــتملا على تلك اللطائف والخصوصيات التي بها يطابق مقتضى الحال.

فائدة دراسة علم المعاني :

١- معرفة إعجاز القرآن الكريم من جهة ما خصه الله به من جودة السبك وحســن الوصف وبراعة التراكيب ، ولطف الإيجاز وما اشتمل عليه من سهولة التركيب وجزالة كلماته ، وعذوبة ألفاظه وسلامتها.

٢- الوقــوف علــى أســرار الــبلاغة والفصاحة في منثور كلام العرب ومــنظومة كــي نحــتذي حذوه ونسج على منواله ، ونفرق بين جيد الكلام ورديئه.

---

(١) أنظر المطول ٣٤.

مباحث علم المعاني :

ينحصر علم المعانى فى ثمانية أبواب هى :

أحوال الإسناد الخبرى – أحوال المسند إليه – أحوال المسند – أحوال متعلقات الفعل – القصر – الإنشاء – الفصل والوصل – الإيجاز والإطناب والمساواة.

ركنا الجملة :

للجملة ركنان أساسيان وهما :

١– المسند ويسمى محكوما به أو مخبرا به ، ويتمثل فى : خبر المبتدأ والفعل التام ، واسم الفعل نحو هيهات ، وأخبار النواسخ – كخبر كان وإن – والمفعول الثانى لظن وأخواتها ، والمفعول الثالث لأرى ، والمصدر النائب عن فعل الأمر نحو سعيا فى الخير.

٢– المسند إليه ويسمى محكوما عليه أو مخبرا عنه ، ومواضعه : الفاعل والمبتدأ الذى له خبر ، وأسماء النواسخ مثل : كان وإن وأخواتهما ، والمفعول الأول لظن وأخواتها ، والمفعول الثانى لأرى وأخواتها ، ونائب الفاعل.

وأما النسبة التى بين المسند والمسند إليه فتسمى إسناداً ، وما زاد على المسند والمسند إليه من مفعول وحال وتمييز وغير ذلك فهو زائد على تكوين الجملة فيما عدا صلة الموصول والمضاف إليه ويسمى هذا الزائد متعلقات الفعل.

تقسيم الكلام إلى خبر وإنشاء :

ينقسم الكلام إلى قسمين :

أ-**الخبر** : وهو الكلام الذى يحتمل الصدق والكذب لذاته ، أى بقطع النظر عـن خصـوص المخـبر أو خصوص الخبر ، وإنما ينظر فى احتمال الصـدق والكـذب إلى الكلام نفسه لا إلى قائله ، وذلك لتداخل الأخبار الواجبة الصدق – كأخبار الله تعالى وأخبار رسله – والبديهيات المسلمة إن صـدقا وإن كذبا مثل ك السماء فوقنا والأرض تحتنا ، وعكس ذلك أيضاً ، ولتدخل الأخبار الواجبة الكذب كأخبار مدعى النبوة.

ويمكن أن يقال في تعريف الخبر : هو ما يتحقق مدلوله في الخارج بدون النطق به ، نحو العلم نافع ، فقد أثبتنا صفة النفع للعلم ، وتلك الصفة ثابـتة له سواء تلفظنا بالجملة السابقة أم لا ، لأن نفع العلم أمر حاصل فى الحقـيقة والواقـع وإنما أنت تحكي ما اتفق عليه الناس قاطبة وقضت به الشرائع دون نظر إلى إثبات جديد.

ب-**الإنشـاء** : وهـو الكلام الذى لا يحتمل الصدق ولا الكذب لذاته نحو اضْرِبْ واكتب ، فلا ينسب إلى قائله صدق أو كذب ، ومعنى لذاته : أى بقطع النظر عما يستلزمه الإنشاء ، فإن لا تلعب يستلزم خبرا وهو : أنا طالب عدم لعبك، لكن هذا ليس لذاته.

والإنشاء قسمان : طلبي وغير طلبي.

فالطلبي : ما يستدعي مطلوباً غير حاصل وقت الطلب كالأمر والنهي والنداء والتمني والاستفهام ..

وغير الطلبي : ما لا يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، ويكون بصيغ المدح والذم ، وصيغ العقود ، والقسم والتعجب والرجاء وغيرها.

صدق الخبر وكذبه :

للعلماء في صدق الخبر وكذبه مذاهب متعددة ، وسنكتفي من ذلك بعرض لرأي الجمهور إجمالا ، ومضمونه : أن صدق الخبر مطابقته للواقع ونفس الأمر ، وكذبه عدم مطابقته له ، فجملة العلم نافع ، إن كانت نسبته الكلامية – وهي ثبوت النفع للعلم المفهومة من تلك الجملة مطابقة للنسبة الخارجية ، بمعنى أنها موافقة لما في الخارج والواقع فصدق ، وإلا فكذب نحو : الجهل نافع ، فنسبته الكلامية ليست مطابقة وموافقة للنسبة الخارجية ، فمطابقة النسبة الكلامية للنسبة الخارجية ثبوتا ونفيا صدق وعدم المطابقة كذب.

فالنسبة التي دل عليها الخبر ، وفهمت منه، تسمى كلامية ، والنسبة التي تعرف من الخارج – بقطع النظر عن الخبر – تسمى خارجية ، فهناك نسبتان : نسبة تفهم من الخبر ويدل عليها الكلام وتسمى النسبة الكلامية ، ونسبة أخرى تعرف من الخارج بقطع النظر عن الخبر وتسمى النسبة الخارجية ، فما وافق الواقع فهو صدق وما خالفه فهو كذب.

أحوال الإسناد الخبري

تعريف الإسناد الخبري :

ضم كلمة أو ما يجري مجراها إلى كلمة أخرى أو ما يجري مجراها بحيث يفيد الحكم بأن مفهوم إحداهما – المسند – ثابت لمفهوم الأخرى – نفس المسند إليه – أو منفي عنه ، نحو : الله واحد ، محمد ﷺ نبي ، فقد حكم في المثالين بإسناد الوحدانية لله سبحانه والنبوة لمحمد ﷺ.

والإسناد يتنوع إلى أربعة أقسام، لأن المسند والمسند إليه إما أن يكونا كلمتين حقيقة نحو : الله واحد – وإما أن يكونا كلمتين حكما نحو : لا إله إلا الله ينجو قائلها من النار ، أي توحيد الإله نجاة من النار – وإما أن يكون المسند إليه كلمة حكما والمسند كلمة حقيقة نحو : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه ، أي سماعك بالمعيدي خير من رؤيته – وإما بالعكس بأن يكون المسند إليه كلمة حقيقة والمسند كلمة حكما نحو : الأمير قريب قدومه أي الأمير قريب قدومه.

الأغراض التي من أجلها يلقى الخبر :

الأصل في الخبر أن يلقى على السامع لأحد غرضين :

أ- إما إفادة المخاطب الذي تضمنته الجملة إذا كان جاهلا له لا يعلمه ، ويسمى هذا النوع فائدة الخبر ، نحو: نجح محمد ، الدين المعاملة ، وعمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين لمن يجهل ذلك.

ب- وإمـا إفـادة المخاطب أن المتكلم عالم أيضا بأنه يعلم الخبر ، كقولك لرجل أخفى عليك ترقيته – وعلمت ذلك من طريق آخر – أنت صرت مديرا ، أو قولك لتلميذ أخفى عليك نجاحه وعلمت ذلك من غيره – أنت نجحـت في الامتحان ، وكقولك لمن زيد عنده – ولا يعلم أنك تعلم ذلك – زيد عندك ، ويسمى هذا النوع لازم الفائدة لأنه يلزم في كل خبر أن يكون المخبر به عنده علم أو ظن به.

وهذان الغرضان أساسيان في الجملة الخبرية، ولكن قد يخرج الخبر عنهما إلى أغراض بلاغية أخرى تستفاد بالقرائن، ومن سياق الكلام ، لأننا نرى في الكلام لعربي أخبارا كثيرة لا يقصد بها إفادة المخاطب الحكم ولا أن المتكلم عالم بذلك ، ومن هنا تكون قد خرجت عن معناها الأصلي إلى أغراض أخرى نتكلم عنها فيما يأتي :

الأغراض التي يخرج إليها الخبر عن معناه الأصلي :

١- إظهـار الخشوع والضعف ، كقوله تعالى – حكاية عن سيدنا زكريا – عليه السلام – ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾[1] فالله سبحانه وتعالى يعلم بضعفه لكنه أراد أن يظهر ضعفه وخشوعه أمام الله سبحانه ، ومنه قول الشاعر :

إلهـي عـبدك العاصـي أتاكـا مقـرا بـالذنوب ، وقـد دعاكـا

---

(١) سورة مريم ٤.

فالمولى سبحانه وتعالى يعلم بعصيانه وتوبته لكنه يقصد إظهار الخشوع والضعف لله وحاجته إلى عفوه، ومنه قول الشاعر :

إن الثمانين – وبلغتها – قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

وقوله :

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي إذا اشتد الزمان وساعدي

فالخبر في كل ما تقدم ليس مرادا به إفادة المخاطب الحكم ولا إفادته أن المتكلم يعلم الحكم وإنما المقصود إظهار الخشوع والضعف.

٢-إظهار التحسر على شئ محبوب ، نحو قوله تعالى – حكاية عن امرأة عمران – ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾(١) فالله عز وجل يعلم أنها وضعت أنثى لكنها تظهر تحسرها على ذلك لأنها كانت ترجو أن يكون مولودها ذكرا لتهبه لخدمة البيت كما في قولها ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾(٢) والمعروف أن التحرير لا يكون إلا للذكور ، والمعنى : أن ما طلبته، – وهو كون المولود ذكرا – غير ما جاء – وهو كونه أنثى – لذلك أظهرت تحسرها، وقد أراد الله لتلك الأنثى أن تأتي بمعجزة وهو عيسى عليه السلام ومن ثم فما أراده الله لابنتها خير مما تمنته من الذكورة ليخدم بيت المقدس ومن ذلك قول الشاعر:

جار الزمان فلا جواد يرتجى للنائبات ولا صديق يشفق

---

(١) سورة آل عمران ٣٦.

(٢) سورة آل عمران ٣٥.

فهـو لا يقصـد الإخبار بذلك لكنه يريد أن يظهر تحسره على جور الـزمان وفقد الكرام ، والأصدقاء من الناس ولذلك نلم به النوائب من كل جانب.

٣-**التحزن والتفجع** : وذلك كقول الشاعر :

قومـي هـم قتلوا – أميم – أخي ... فـإذا رميـت يصـيبني سـهمي

فالشـاعر لا يريد إخبارنا بأن قومه القاتلون لأخيه وإنما يريد إظهار حـزنه وتفجعـه بسبب هذا الحادث لأن القتيل والقاتل منه فلا يستطيع أن يقـتص من القاتل لأن ذلك يؤلمه لكون المقتص منه من قومه فكأنه يقتص من نفسه.

٤-**الإسـترحام والاسـتعطاف** : كقولك : إني فقير إلى عفو ربي ، فليس المـراد إفادة المخاطب هذا الحكم أو لازمه ولكنه لطلب العفو والرحمة من الله سبحانه.

ومن ذلك إظهار الضراعة كما في قول كعب بن زهير.

انبئـت أن رسـول الله أوعدنـي ... والعفـو عـند رسـول الله مأمول

فالشـاعر لا يريد الإخبار بإيعاد النبي ﷺ له لكنه يريد أن يتضرع للنبي ويسترحمه ليعفو عنه.

٥-تحـريك الهمـة إلـى مـا يلزم تحصيله نحو قولك : ليس سواء عالم وجهـول، وقـول الرسول ﷺ: "عدل ساعة في حكومة خير من عبادة ستين سنة"، فليس المراد من المثال الأول الإخبار عن عدم التساوي بين

العالم والجاهل لكن المراد حث المخاطب على تحصيل العلم وليس المراد كذلك من قول النبي ﷺ مجرد الأخبار لكن الهدف هو حث الحاكمين على العدل وتطبيقه ونشره بين جميع الناس.

٦-**الهجاء كقول جرير :**

لقد ولدت أم الفرزدق فاجرا وجاءت بوزواز قصير القوائم

٧-**بيان التفاوت في المراتب** ، كقولك : لا يستوي كسلان ومجد ، وقوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] وقوله ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾.[٢]

٨-**التوبيخ كقولك للعاثر** : الشمس طالعة ، فأنت لا تريد إخباره بطلوع الشمس لكنك تريد أن توبخه على عثرته مع أن الشمس طالعة وكل شئ ظاهر أمامه.

وقولك للغني المستجدي : عندك المال الوفير ، فأنت لا تريد أن تعلمه بأنك تعرف أن عنده مالا وفيرا لكنك تقصد توبيخه على استجدائه مع كثرة ماله.

(١) سورة الزمر آية ٩.

(٢) سورة فاطر ١٩ - ٢٢.

٩-**الفخر** ، كقولك : إني أعرف العميد ، إني أجلس مع الوزير فليس المراد الإخبار بأنك تعرف عميد الكلية وبجلوسك مع الوزير ، ومنه قول النبي ﷺ (إن الله اصطفاني من قريش) ، فالنبي ﷺ يفتخر بكونه من قريش ، ومنه قول أبي فراس :

ومكارمي عدد النجوم ومنزلي ... مأوى الكرام ومنزل الأضياف

وقوله :

منعت حمى قومي وسدت عشيرتي ... وقلدت أهلي غر هذي القلائد

فهو لا يريد إخبارنا بما ذكره في البيتين لكنه يريد أن يتجاوز ذلك إلى الافتخار بأنه يملك تلك الصفات.

١٠-المدح كقول الشاعر :

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

وقول ابن حيوس :

بني صالح اقصدتم من رميتم ... وأحييتم من أم معروفكم قصدا

وذللتم صعب الزمان لأهله ... فذل وقد كان الجماح له وكدا

مناقب لو أن الليالي توشحت ... بأدناها لا بيض منهن ما اسودا

١١-التهديد : قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١) هذا ولا تقتصر أغـراض الخبر على ذلك وإنما يمكن استخراج غيرها من الأغراض عن طريق الذوق والعقل السليم كإظهار الفرح والرثاء وغير ذلك.

صور الخبر (أضرب الخبر) :

نتكلم هنا عن كيفية إلقاء المتكلم الخبر للمخاطب ، لأن المقصود من الكلام دائما هو الإفصاح والإظهار ، ولذلك وجب على المتكلم أن يراعى حال المخاطب بحيث يعطيه من العبارات ما يتناسب معه ، لأن حق الكلام أن يكـون بقـدر حاجة المخاطب فلا يزيد عنها حتى يوصف بالعبث ولا ينقص عنها فيخل بالغرض.

ولهـذا تختلف صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف حال المخاطب وحاجته إلى التأكيد أو عدمه ، ويأتي ذلك في صور ثلاث:

١-فإن كان المخاطب خالي الذهن من الخبر لا يعلم عنه شيئا غير متردد فيه ولا منكر له ألقي إليه الكلام بلا تأكيد لعدم الحاجة إليه ، كقولك لمن لا يعلـم بقـدوم علـي من السفر : قدم علي من السفر ، ولمن لا يعلم بظهور نتيجة الامتحان ظهرت نتيجة الامتحان ، وكقوله تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾(٢) ويستعمل هذا الضرب حين يكون المخاطب

(١) سورة هود آية ١٢٣.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

خالي الذهن من مدلول الخبر فيتمكن منه لأول وهلة لمصادفته إياه خاليا، قال الشاعر :

أتـاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصـادف قلبـا خاليـا فتمكـنا

ويسمى هذا الضرب من الخبر ابتدائياً.

٢-وإن كـان المخاطب مترددا في الخبر طالبا الوصول لمعرفته والوقوف على حقيقته حسن تقوية الحكم بمؤكد واحد دفعا لهذا التردد ليتمكن الحكم من نفسه، كقولك لمن شك في نجاح محمد :

إن محمـدا نجـح ، وقولـك : إن الأمـير منتصر ، لمن تردد بين انتصـاره وهزيمـته ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾(١) فالتأكـيد فـي الآيات جاء من تكرار (جعلنا) أما في المثالين فالأداة المؤكدة أن ، ومن ذلك قول الشاعر :

إن الغـنيَّ مـن الـرجال مُكـرَّمٌ وتـراه يـرجى مـا لديه ويرغب

جـاء التأكـيد في البيت بأن واسمية الجملة لدفع الشك والتردد من المخاطب في الحكم الذي هو كون الغني من الرجال مكرم من غيره.

ويسمى هذا الضرب من الخبر طلبيا ، ويستعمل حين يكون المخاطب شاكاً في مدلول الخبر طالبا التثبت من صدقه.

---

(١) سورة النبأ ٩ – ١١.

٣-وإن كـان المخاطب منكرا للخبر الذي يراد إلقاؤه إليه ، معتقدا خلافه أكد له الكلام بمؤكدين أو أكثر على حسب حاله من الإنكار ودرجة هذا الإنكـار في القوة والضعف ، نحو إني ناجح لمن ينكر نجاحك ، وإني لـناجح لمـن يزيد في إنكاره ، والله إني لناجح لمن يبالغ جداً في هذا الإنكـار ، ومـنه قولـه تعـالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾(١) ، فقـد أكدوا كلامهم بلام القسم ولام التوكيد ونونه وذلك لأنهم يعرفون أن الله سبحانه يعلم جيدا أنهم منكرون لنعمه كافرون بها ، ولذا كان الشكر منهم والاعتراف بالوحدانية بعيدا فأكدوا كلامهم.

ويسـمى هـذا الضـرب مـن الخبر إنكارياً ، ويستعمل حين يكون المخاطب منكراً للحكم.

ومـن أبرز الأمثلة على تفاوت التأكيد حسب درجة الإنكار ما حكاه الله سـبحانه وتعالى عن رسل عيسى – عليه السلام – الذين أرسلهم إلى قومه فأنكروا رسالتهم في قوله سبحانه ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (يس آية ١٣)

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ (يس:١٤)

﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ (يس:١٥)

---

(١) سورة يونس ٢٢.

﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ (يس:١٦) فلما كان إنكارهم للرسل أقل في المرة الأولى ردوا عليهم بقولهم ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ مؤكدين الكلام بمؤكدين إن واسمية الجملة ، ولما ازداد إنكارهم وتكذيبهم ازداد تأكيد الخبر لهم فقالوا ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ مؤكدين كلامهم بإن واللام واسمية الجملة وتقديم الجار والمجرور على متعلقة.

والتمييز بين الأضرب الثلاثة ليس بالأمر الهين ، فقد وجدنا يعقوب بن إسحاق الكندي الفيلسوف قد أشكل عليه هذا الأمر حين سأل أبا العباس محمد بن يزيد المبرد ، صاحب كتاب الكامل قائلا : إني أجد في كلام العرب حشوا ، يقولون : عبد الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد؟ فأجابه المبرد بما يدفع هذه الشبهة فقال : بل المعاني مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم رد على إنكار منكر.

هذا ومما يجب التنبيه عليه : أن التأكيد كما يكون في الإثبات يكون في النفي نحو ما المقتصد بمفتقر ، ووالله ما المستشير بنادم ، ووالله ما الكسول بناجح ، وهكذا ، كما أن الخبر قد يؤكد لشرف الحكم وتقويته مع أنه ليس فيه تردد ولا إنكار ، كقولك في افتتاح كلام : إن أفضل ما نطق به اللسان كتاب الله.

كما أن التأكيد في هذا الباب تأكيد الحكم لا تأكيد المسند إليه ولا المسند ، وإن لتوكيد الخبر أدوات كثيرة منها : إن وأن ، ولام الابتداء – وهي الداخلة على المبتدأ واللاحقة للخبر – وأحرف التنبيه – مثل ألا –

والقسم ، ونونا لتوكيد ، والتكرار والحروف الزائدة – كتفعل واستفعل – وقد ، وأما الشرطية ، وإنما ، وضمير الفصل ، واسمية الجملة ، لأن الخطاب بالاسمية وحدها آكد من الخطاب بالجملة الفعلية ، فإذا أريد مجرد الإخبار أتى بالفعلية ، وإن أريد التأكيد أتى بالإسمية وحدها أو بها مع أن ، أو بهما واللام ، أو بالثلاثة والقسم.

وإخراج الكلام وروده على الأضرب الثلاثة السابقة يسمى إخراجا على مقتضى ظاهر الحال ، وقد تقتضي الأحوال العدول بالكلام عن مقتضى الظاهر فيجئ الكلام على خلافه لاعتبارات يراعيها المتكلم ، وسلوك هذا الطريق أمر يعتبره العلماء شعبة من البلاغة ، وإليك بيان ذلك:

إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (١)

يتحقق هذا الإخراج في الصور الآتية :

١-تنزيل العالم بفائدة الخبر أو لازمها أو بهما معا منزلة خبره ، وذلك إنما يكــون في حالات ثلاث : بأن ينزل العالم منزلة الجاهل (خالي الذهن) عدم جريه على موجب علمه فيلقى إليه الخبر كما يلقى إلى الجاهل به ، كقولــك لمن يعلم وجوب الصلاة وهو لا يصلي الصلاة واجبة ، توبيخا له وإشارة إلى أنه لا يتصور تركها إلا من الجاهل ، وإن تارك الصلاة والجــاهل ســواء ، وكقولك لمن يعلم ضرر اللعب : اللعب يؤدي إلى الرسوب ، ولمن يؤذي أباه: هذا أبوك.

أو ينزل العالم منزلة المتردد ، فتقول إن الصلاة واجبة.

أو يــنزل العــالم منزلة المنكر فتقول له : والله إن الصلاة لواجبة ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾(٢) مؤكدا لهم بأن واسمية الجملة واللام مع علمهم بأن الموت آت لا تردد فيه ولا إنكار ، ومنه قول أبي نواس :

أمــا يــا ابــن الذيــن فنوا وبادوا　　　أمـــا والله مـــا ذهـــبوا لتـــبقى

---

(١) الحــال : الأمــر الداعي لا يراد الكلام مكيفا بكيفية ما ، سواء أكان ذلك الأمر ثابتا في الواقع أم كان ثبوته بالنظر إلى ما عند المتكلم كتنزيل المخاطب غير السائل منزلة السائل، وظاهــر الحال : الأمر الداعي لإيراد الكلام مكيفا بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتا في الواقع ، فكل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال ، وليس كل كيفية اقتضاها الحال اقتضاها ظاهره.

(٢) سورة المؤمنون ١٥.

وقوله أيضاً :

وما الناس إلا هالك وابن هالك ... وذو نسب في الهالكين عريق

فقد أكد الكلام في البيتين مع أن العلم بموت كل حي لا إنكار فيه ولا تردد، لكنه نزل العالمين بذلك منزلة المنكرين لعدم جريهم على موجب علمهم.

٢-تنزيل خالي الذهن منزلة السائل المتردد إذا تقدم في الكلام ما يشير إلى حكم الخبر فيستشرف له استشراف السائل ، كما في القرآن من قوله ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾(١) فمدخول إن مؤكد لمضمون ما تقدمه لإشعاره بالتردد فيما تضمنه مدخولها ، وكقوله سبحانه ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(٢) فالله سبحانه لما أمر نوحا – عليه السلام – أولا بصنع الفلك ونهاه ثانيا عن مخاطبته بالشفاعة في قومه صار – مع كونه غير سائل – في مقام السائل المتردد هل حكم الله عليهم بالإغراق؟ فأجيب بقوله (إنهم مغرقون) فقوله (ولا تخاطبني) يشير إلى جنس الخبر وأنه عذاب، وقوله (أنهم مغرقون) يشير إلى خصوص الخبر الذى أشير إليه ضمنا في قوله : ولا تخاطبني، ومنه قول الشاعر :

ترفق أيها المولى عليهم ... فإن الرفق بالجاني عتاب

---

(١) سورة يوسف ٥٣.

(٢) سورة هود ٣٧.

فالأصل أن يورد الخبر هنا خاليا من التأكيد لأن المخاطب خالي الذهن من الحكم لكن لما تقدم في الكلام ما يشعر بنوع الحكم أصبح المخاطب متشوقا لمعرفته فنزل منزلة السائل المتردد الطالب ، واستحسن إلقاء الكلام إليه مؤكداً جريا على خلاف مقتضى الظاهر ومنه قوله تعالى ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾(١) فصدر الآية يشير إلى أن الخبر من جنس الخير والنفع فنزل الخالي وهو الرسول ﷺ منزلة السائل وقيل له (إن صلاتك سكن لهم).

٣-تنزيل غير المنكر منزلة المنكر إذا ظهر عليه شئ من أمارات الإنكار كقول حجل بن نضلة :

جاء شقيق عارضا رمحه ... إن بني عمك فيهم رماح

فإن شقيقا لا ينكر رماح بني عمه ولكن مجيئه على صورة المعجب بشجاعته واضعا رمحه على فخذيه بالعرض وهو راكب ، أو حاملا له عرضا على كتفه في جهة العدو بدون اكتراثه به يعد بمنزلة إنكاره أن لبني عمه رماحا وأنه لن يجد منهم مقاوما له ، كأنهم في نظره عزل لا رماح معهم ، فأكد له الكلام استهزاء به ، كما خوطب خطاب الثقات بعد غيبة تهكما به ورميا له بالسفه وخرق الرأى.

---

(١) سورة التوبة ١٠٣.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾[١] لما كانوا غافلين عن الموت نزلوا منزلة المنكرين فأكد لهم الكلام.

٤- تنزيل المتردد منزلة خالي الذهن ، كقولك للمتردد في قدوم مسافر مع شهرته : قدم الأمير ، وكقولك للشاك في نجاحه : نجحت.

٥- تنزيل المنكر منزلة خالي الذهن إذا كان لديه شواهد وأدلة لو تأملها لارتدع وزال عنه الإنكار ، كقوله تعالى ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[٢] فإن كل ما في الوجود يدل على وحدانية الله سبحانه ، ولذا ترك التأكيد مع أنه خطاب للمنكرين للوحدانية ، وكقولك لمنكر الإسلام : الإسلام حق ، إشارة إلى أن الأدلة على أن الإسلام حق من الوضوح والظهور بحيث يدركها من له أدنى تأمل ، ويكون الإنكار مع هذه الأدلة كالعدم فلا يلتفت إليه ويجيء الكلام خاليا من التأكيد ، وفي هذا إضعاف لحجة الخصم ومن ذلك في جانب النفي قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٣] فانتفاء الريب عن القرآن أمر ينكره الكفار ، لكن وضوح الأدلة التي تفيد نفي الريب عنه جعلت إنكارهم كالعدم ، وكقولك لمن ينكر منفعة الطب :

الطب نافع بلا تأكيد ، لأن أدلة نفع الطب للناس واضحة فنزل منكر نفعه منزلة خالي الذهن.

---

(١) سورة المؤمنون ١٥.

(٢) سورة البقرة ١٦٣.

(٣) سورة البقرة ٢.

٦- تنزيل المنكر منزلة المتردد ، كقولك لمن ينكر شرف الأدب إنكارا ضعيفا : إن الجاه بالمال إنما يصحبك ما صحبك المال وأما الجاه بالأدب فإنه غير زائل عنك ، ويستعمل هذا إذا كانت أدلة الحكم من القوة بحيث توهن أسباب الإنكار ، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(١) فقد أكد إثبات البعث تأكيدا أقل وإن كان المشركون ينكرون، لأن وضوح أدلته توجب عدم إنكاره فكان على الناس إما أن يؤمنوا به وإما أن يسألوا عنه فنزل المخاطبون منزلة السائلين إشارة إلى ظهور الأدلة ليتأملوها.

---

(١) سورة المؤمنون ١٦.

المجـــاز العــقلى

ويسمى أيضاً المجاز الحكمى والمجاز فى الإثبات والإسناد المجازى، وإنما سمى مجازا عقليا لأن التجوز فيه راجع إلى العقل لا إلى الوضع[1]، لأن إسناد الفعل إلى فاعله شئ يحصل بقصد المتكلم دون واضع اللغة.

وقــبل أن نــتكلم عن المجاز العقلى ينبغى أن نذكر تعريف الحقيقة العقلــية المقابلة له ، وهى : إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى ما هو له عند المتكلم فى الظاهر ، والمراد بما فى معنى الفعل : المصدر واسم الفاعل ، واسم المفعول والصفة المشبهة وأفعل التفضيل والظرف ، وهذا للاحتراز عما لا يكون المسند فيه فعلا أو فى معنى الفعل ، كقولنا : الحيوان جسم ، ومعنى إلى ما هو له ، أى إلى شئ يكون ذلك الفعل له ، كالفاعل فيما بنى لــه نحــو : ضــرب زيد عمرا ، والمفعول به فيما بنى له نحو : ضرب عمــرو ، وقوله : عند المتكلم فى الظاهر ، أى يكون الإسناد إلى ما هو له عــند المتكلم فيما يفهم من ظاهر كلامه ويدرك من ظاهر حاله بألا ينصب قريــنة علــى أنــه غير ما هو له فى اعتقاده ، وقال : فى الظاهر ليشمل مــا لا يطــابق اعــتقاده ممــا يطــابق الواقع وما لا يطابقه ، ومن أمثلة الحقيقة قولك : شفى الله المريض وأنبت الله البقل ، وقوله سبحانه وتعالى

---

(1) وهو بخلاف النوع الآخر من المجاز الذى يرجع التجوز فيه إلى الوضع اللغوى للكلمة ، والمسمى بالمجاز اللغوى وهو : الكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له فى اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلى ، كقولك : رأيت أسدا يخترق الصــفوف ، أو بحرا يخطب الناس ، فالمجاز فى هذا راجع إلى نقل الكلمة من معناها إلى معنى آخر ، وأما ما نحن فيه فالمجاز راجع لإسناد الفعل لغير ما هو له.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ...﴾ (١)

تعريف المجاز العقلي :

هـــو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في الظاهر من حال المتكلم لملابسة مع قرينة صارفة للإسناد عن كونه إلى ما هو له.

ومعـــنى كونه إلى غير ما هو له : أنه ليس من حقه أن يسند الفعل إلـــيه لأنه ليس وصفا له ، ومعنى الملابسة : العلاقة التي بين المسند إليه المجازي والمسند إليه الحقيقي ، وهذا يشمل إسناد الفعل المبني للفاعل وما في معناه – كاسم الفاعل – إلى غير فاعله ، كالمفعول والمصدر والزمان والمكـــان والسبب مما له علاقة بالفاعل ، ويشمل أيضاً إسناد الفعل المبني للمفعـــول ومـــا في حكمه – كاسم المفعول – إلى غير نائب الفاعل مما له علاقة به كالفاعل والمصدر ، والقرينة : هي ما يصرف الإسناد عن كونه إلى ما هو له ، سواء كانت لفظية – بأن يذكر مع الإسناد لفظ يصرفه عن أن يكون مرادا به حقيقة الإسناد – أو معنوية ، بأن يكون مع الإسناد أمر معنوي يصرفه عن ظاهره – كاستحالة قيام المسند بالمسند إليه أو صدوره منه عقلا أو عادة – أو ما يرجع إلى حال المتكلم نفسه من قرائن تدل على صرف الكلام عن ظاهره إلى المجاز.

---

(١) سورة آل عمران ٢٦.

قرينة المجاز العقلي :

اشترط البلاغيون وجود قرينة مانعة عن إرادة المعنى الحقيقي في صور المجاز العقلي وهذه القرينة إما لفظية أو غير لفظية أي معنوية.

فاللفظية : أن يذكر في الكلام لفظ يصرفه عن إرادة الإسناد الحقيقي، ومثال ذلك قول أبي النجم :

قد أصبحت أم الخيار تدعي ... علي ذنبا كله لم أصنع

من أن رأت رأسي كرأس الأصلع ... ميز عنه قنزعاً عن قنزع[1]

جذب الليالي أبطئي أو أسرعي

أفناه قيل الله للشمس أطلعي ... حتى إذا واراك أفق فارجعي

فالشاعر أسند الفعل "ميّزه" بمعنى فرّق وفصل إلى جذب الليالي إسناداً مجازياً من إسناد الفعل إلى السبب أو الزمن ، وذلك لأن توالي الليالي لا يفرق شعر الرأس ، ولكن الليالي زمن لذلك ، أو سبب فيه لما فيها من الهموم الثقيلة التي تعتري الشاعر.

وقرينة المجاز هنا لفظية : وهي قول الشاعر "قيل الله" فقد أسند إفناء شعر الرأس إلى الله إسنادا حقيقياً ، فدل هذا على أن القائل مؤمن متجوز في كلامه الأول ، وأن إسناد "ميّز" إلى جذب الليالي مجاز عقلي.

---

(١) القنازع : الشعر المجتمع في نواحي الرأس "عن" الثانية بمعنى بعد أن أفناه أي أفنى الشعر – جذب الليالي : مضيها ، قيل الله : أي قول الله – واراك : غيبك.

وأما القرينة غير اللفظية أو المعنوية :

فهى ألا يذكر فى الكلام لفظ يصرفه عن إرادة الإسناد الحقيقى ، بل يكـون فى الكلام أمر آخر خارج عن نطاق اللفظ ، وهو استحالة صدور المسـند مـن المسـند إليه أو قيامه به عقلا أو عادة ، فإذا قلت : محبتى للمحاضرة هى التى أتت بى إليها ، بإسناد الإتيان إلى ضمير المحبة على سـبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية ، والقرينة هنا معنوية إذ يستحيل عقلا إتصـاف المحـبة بالحدث وهو الإتيان ، وتقول : فتح عمرو بن العاص مصـر ، فتسـند فتح مصر إلى "عمرو" على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السـببية والقريـنة معنوية إذ يستحيل عادة أن يفتح عمرو بمفرده مصر ، وإن كان هذا ممكنا عقلاً.

وعلى ذلك جاء قوله تعالى : ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾[1] فقد أسـند التذبـيح والاستحياء لفرعون وهو فى العادة لا يقع ذلك منه بل هو سـبب فـيه ، والقرينة هى استحالة صدور ذلك الفعل من فرعون عادة لا عقـلا، وقـس على هذا نحو : هزم الأمير الجند ، وكسا الخليفة الكعبة ، وبنى الوزير القصر.

علاقات المجاز العقلى :

للفعـل ملابسـات شـتى ؛ لأنه يلابس الفاعل من جهة وقوعه منه، والمفعـول من جهة وقوعه عليه ، ويلابس المصدر لكونه جزء مفهومه،

---

(١) سورة القصص من الآية ٤.

وبلابـس الـزمان والمكان ؛ لأن كل حدث لا بد له من زمان ومكان يقع فيهما ، وبلابس السبب ؛ نظراً لوقوعه به.

فإذا ما وجدت علاقة بين المسند إليه الحقيقي ، والمسند إليه المجازي كانـت هذه العلاقة مسوغة لأسلوب المجاز العقلي ، وسنذكرها على النحو التالي:

١-**علاقة السببية** : وفيها يكون الفعل مسنداً إلى سببه ، كقولنا :

أنشـا وزير التعليم عدة مدارس ، نسب الفعل إلى الوزير لكونه سببا فـي الإنشـاء ، وكقولـك : انتصر القائد على جيوش العدو ، الذي حقق الانتصار على جيش العدو في الحقيقة هم الجنود المحاربون في الميدان ، لكن نسب الانتصار إلى القائد لكونه سببا فيه من جهة إشرافه الدقيق على وضع الخطة ومباشرة تنفيذها ، ولذلك صح إسناد الفعل إليه مبالغة ، لأنه لـولاه لمـا تحقـق النصر ، ومن ذلك قول الطالب غير المجد : أفزعني الامتحان وحقيقة هذا التعبير : فزعت بسبب الامتحان ، ومنه قول الشاعر:

إنـا لمـن معشـر أفنـى أوائلهـم   قـيل الكمـاة ألا أيـن المحامونا

فقـد نسـب الإفناء إلى غير فاعله الحقيقي فجعله راجعا إلى قول الشـجعان هل من مبارز؟ وليس ذلك القول بفاعل له في الحقيقة وإنما هو سبب فقط ، وحقيقة هذا التعبير : أفنى الله أوائلهم بسبب قيل الكماة ، ومنه قولـه تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1] أسند النفع إلى الذكرى

---

(١) سورة الذاريات الآية ٥٥.

وهي ليست بفاعل في الحقيقة وإنما هي سبب في النفع ، وحقيقة التعبير : فإن الذكرى ينفع الله بسببها المؤمنين.

٢-**علاقـــة المفعولـــية** : وفيها يسند الفعل المبني للفاعل إلى المفعول به ، كقولك : رضيت عيشة فلان ، فقد أسندت فعلا مبنيا للمعلوم – حقه أن يســند إلى فاعله الحقيقي – إلى المفعول فيقال : رضي فلان عيشته، لأن العيشـــة مرضـــية لا راضـــية ، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾[١] وحقيقته : عيشة راض صاحبها عنها ، ومـــنه قولهـــم : ربحـــت تجارته ، والأصل : ربح في تجارته ، ومنه قولهـــم: مـــنزل عامـــر بنعم الله ، المسند اسم الفاعل إلى المفعول في المعنى، ومنه سرني حديث المحب ، استعمل اسم الفاعل (المحب) بدلا من المحبوب لأن المراد : سررت بمحادثة المحبوب.

علاقة الفاعلية : وفيها يسند ما يبنى للمفعول إلى الفاعل كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾[٢] الوعـــد آت لا مأتي ، وحقيقته : كان وعده مأتيا صـــاحبه ، أي يأتـــيه الوعد ، وقوله تعالى ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾[٣] أي ساترا ، جعل الحجاب مستورا مع أنه هو الساتر.

---

(١) سورة القارعة الآيتان ٦ ، ٧.
(٢) سورة مريم ٦١.
(٣) سورة الإسراء ٤٥.

٤-علاقة المصدرية : وفيها يسند الفعل إلى مصدره كقول أبي فراس :

سيذكرني قومي إذا جد جدهم … وفي الليلة الظلماء يفتقد البدر

أسند الفعل (جد) إلى المصدر (جدهم) بمعنى اجتهادهم وهو ليس فاعله في الحقيقة بل الفاعل هو الجاد نفسه ، لأن الأصل : جد الجاد جدا ، أي اجتهد ، فحذف الفاعل الأصلي وهو الجاد وأسند الفعل إلى الجد الذي هو المصدر ، ومنه قولهم : تكاد عطاياه يجن جنونها ، فقد أسند الفعل يجن إلى مصدره وهو جنون وهو ليس بفاعله في الحقيقة بل الفاعل الجان ، لأن الأصل : جن الجان جنونا ، حذف الفاعل (الجان) وأسند الفعل إلى الجنون.

٥-علاقة الزمانية وفيها يسند الفعل المبني للفاعل إلى زمانه نحو : من سره زمن ساءته أزمان ، أسند السرور والإساءة إلى الزمن وهو لم يفعلهما حقيقة بل هما واقعان فيه ، والفاعل الحقيقي هو الله ، ومنه قولك: هذا يوم يغيظ الحاسدين ، إسناد غيظ الحاسدين إلى ضمير اليوم غير حقيقي ، لأن اليوم ليس فاعلا في الحقيقة بل حدث فيه الغيظ ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾(١) أسند الفعل يجعل إلى ضمير اليوم وهو ليس فاعله بل هو زمن وقوع الشيب ، وحقيقته يجعل الله الولدان شيبا في ذلك اليوم ، ومنه نهاره

(١) سورة المزمل ١٧.

صــائم وليله قائم ، والأصل : صام فلان فى نهاره وقام فى ليلة ، لكنه أسند اسم الفاعل إلى زمانه ، ومنه قول الشاعر :

كلمـــا أنبـــت الـــزمان قـــناة   ركـــب المـــرء فـــى القـــناة سنانا

أســند أنبــت إلى زمانه وهو ليس بفاعل فى الحقيقة وإنما هو زمن للوقوع ، ومنه قول طرفه :

ســتبدى لــك الأيــام ما كنت جاهلا   ويأتــيك بالأخــبار مــن لم تزود

حقيقــته : سيبدى الله لك فى الأيام ، ومنه يوم مشرق ، وحقيقته يوم مشرقة شمسه فيه ، ونهار عاصف ، أى عاصفة رياحه فيه.

٦-علاقــة المكانــية : وفــيها يسند الفعل إلى مكان وقوعه كقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ﴾(١) أسند الفعل (تجرى) إلى ضمير الأنهار وهى مكان الماء فهى ليست بجارية وإنما الجارى ماؤها وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا﴾(٢) أسند ما حقه أن يسند للفاعل إلى المكــان ، والحقــيقة : حرما آمنا أهله فيه ، وقوله تعالى ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٣) حقــيقة الإسناد أخرج الله من الأرض أثقالها ، ومنه ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾(٤) أسند اشتعل على المكان لأن الذى يشيب وهو الشعر ، ومنه قول الشاعر :

---

(١) سورة الأنعام ٦.

(٢) سورة القصص ٥٧.

(٣) سورة الزلزلة ٢.

(٤) سورة مريم ٤.

وكـل امـرئ يولـي الجميل محبب ... وكـل مكـان ينبـت العـز طيب

حقـيقة الإسـناد في البيت : وكل مكان ينبت الله فيه العز طيب لكن أسـند الفعـل إلى مكانه ، وقد اجتمعت كل من الزمانية والمكانية في قول الشاعر :

يغـنى كلمـا صـدحت أيكـة ... وقـد نـبه الصـبح أطـيارها

الحقـيقة : كلمـا صدحت الطيور في أيكة ، وقد نبه الله في الصبح أطـيارها، ومن الإسناد للمكان قولهم طريق سائر ، ونهر جار ، أى سائر أهله فيه ، ونهر جار ماؤه فيه ، وقولك : ذهبت إلى حديقة غناء ، والحديثة لا تغـن وإنما عصافيرها ، وقولهم : مشرب عذب ، نسبت العذوبة للمكان ولكن العذب هو الماء في الحقيقة.

تنبيه :

ينبغي أن يعلم أن المجاز العقلى ليس خاصا بالإثبات وإنما يجئ في النفي أيضاً كقول الشاعر :

لقـد لمتـنا يا أم غيلان في السرى ... ونمـت ومـا لـيل المطـى بنائم

التقدير وما ليل المطى بنائم أهله فيه.

كمـا يقـع المجـاز العقلى أيضاً في الأساليب الإنشائية كوقوعه في الخبر، تقول في التمني مثلا : ليت عيشة فلان راضية ، وفي الاستفهام : هـل رضـيت عيشة فلان؟ وفي الأمر ، لترض عيشته ، وهكذا ، وحقيقة

الإسـناد فـي الأمثلة : ليت فلانا راض عيشته ، وهل رضي فلان عيشته وليرض فلان عيشته.

القيمة البلاغية للمجاز العقلي :

قـال عنه الشيخ عبد القاهر الجرجاني "هو كنز من كنوز البلاغة ، ومـادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان ، والاتساع في طـرق البيان .. وأنه يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ".[١]

كمـا أنه يحتوي على نوع من الإيجاز ، ويعرض المعنى في أقل ما يمكن من اللفظ ، فمثلا إذا قلنا : فتح عمرو بن العاص مصر ، لا شك أننا نجـد فارقا في قوة العبارة وإيجازها عن قولنا : فتح جيش المسلمين مصر بقيادة عمرو بن العاص[٢] كذلك يعمل على تلوين الأفكار وتوليد الصور ، وبعـث الإيحـاء بما هو ملائم لطبيعة المعاني وهو دليل الفصاحة ورأس الـبلاغة ، وأعجـب ما في العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبـيعي فـي بعض الأحوال ، حتى إنها يسمح بها البخيل ، ويشجع بها الجـبان ، ويحكـم بها الطائش المتسرع ويجد المخاطب بها عند سماعها نشـوة كنشوة الخمر حتى إذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال أو ترك عقوبة.[٣]

---

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢١٤.
(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١١٧.
(٣) ينظر المثل السائر لابن الأثير ٨٩/١ ، والعمدة لابن رشيق ٢٦٥/١.

وفيه المهارة والتركيز في اختيار العلاقة أيا كان نوعها فإذا قلت : يجري النهر فإنك تصور جريان الماء داخل النهر وفي حيزه وليس في مكان آخر ، وإذا أنعمت النظر ألفيت فيه لونا من المبالغة فقد جعلت النهر بضفافه ومائه وكل ما يحتوي يجري وليس الماء وحده ، أي أنه جعل الماء بجملته نهرا حتى كأنه قد تجسد فيه.(١)

وقد يكون من مقاصد المجاز العقلي دفع التهمة عن الفاعل الحقيقي فيسند الفعل على سببه كما قالوا فلان قتله جهله ، وكأنما يريدون تبرئة قاتله من جريمة قتله ، وهذا يذكرنا بقصة سيدنا عمار بن ياسر ﷺ فقد كان في جند علي ﷺ يوم صفين فلما قتل اضطرب أهل الشام لعلمهم بقول النبي ﷺ عمار تقتله الفئة الباغية فقال لهم معاوية : إنما قتله من أخرجه ، فقد وجد معاوية في المجاز دفعا للتهمة عن جماعته.(٢)

أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه :

ينقسم المجاز العقلي باعتبار طرفيه أربعة أقسام:

١-ما كان الطرفان – المسند والمسند إليه – حقيقتين لغويتين ، مثل : أنبت الربيع البقل ، فإنبات البقل الذي هو المسند حقيقي لاستعماله في معناه اللغوي الذي وضع له ، والربيع وهو – المسند إليه – حقيقي لاستعماله في معناه اللغوي الذي وضع له فالطرفان حقيقيان ، ومثل ذلك قول الشاعر :

---

(١) فن البلاغة للدكتور عبد القادر حسين ٩٩ – ١٠٠.
(٢) ينظر البيان العربي بدوي طبانه ١٣٦.

وشيب أيام الفراق مفارقي ... وأنشزن نفسي فوق حيث تكون[1]

فإسناد الشيب إلى أيام الفراق مجاز عقلي علاقته الزمانية ، والمسند "شيب" والمسند إليه "أيام الفراق" كلاهما مستعمل في معناه الحقيقي ، لكن التجوز حصل في الإسناد فقط ، ومثل ذلك : سرني الخبر ، وسرتني رؤيتك.

٢- كان الطرفان – المسند والمسند إليه – مجازيين ، مثل : أحيا الأرض شباب الزمان ، فالطرفان أحيا "المسند" وشباب الزمان "المسند إليه" مستعملان في غير ما وضعا له ، لأن الإحياء إيجاد الحياة في الحيوان فقد استعمل في غير معناه ، وهو إيجاد نضارة الأرض وإحداث خضرتها ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية بأن شبه إيجاد الخضرة وأنواع الأزهار بإعطاء الحياة وإيجادها ، ووجه الشبه كون كل منهما إحداث ما هو منشأ المنافع والمحاسن إذ لا منفعة ولا حسن في الموت[2] وكذلك "شباب الزمان" والذي معناه الأصلي أنه زمن ازدياد قوة الحيوان استعمل في غير معناه وهو الربيع على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، إذا فالطرفان مجازان لغويان ، والتجوز في الإسناد والمسند والمسند إليه.

---

(١) المفارق جمع مفرق وهو موضع افتراق الشعر ، وأنشزن : رفعن ، والشاعر يبين أن أيام الفراق أثرت فيه فشيبت مفارق شعره ، ورفعت روحه عن مكانها في الجسم وبلغت الحلقوم.

(٢) ينظر مواهب الفتاح ١/٢٤٩.

٣-الطرف الأول – المسند – مجاز – والطرف الثانى – المسند إليه حقيقة، ومثال ذلك قول كثير عزة :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح

الشاعر هنا يصور رحلة عودته من الحجيج إلى أوطانهم بعد أن أدوا فريضة الحج يتجاذبون أطراف الحديث وتسيل بهم الإبل فى الأباطح "سيرا حثيثا فى غاية السرعة وكانت سرعة فى لين وسلاسة كأنها كانت سيولا وقعت فى الأباطح فجرت بها"[1] فالشاعر أسند السيلان إلى الأباطح مجاز عقلى علاقته المكانية ، ولو نظرنا إلى الطرف المسند (السيلان) لوجدناه مستعملا فى غير معناه الذى وضع له ، وهو سيل الماء ، ولكنه مستعمل فى معنى مجازى وهو سرعة الإبل ، وذلك على سبيل الاستعارة التبعية فاستعار السيلان للسير السريع واشتق من السيلان سال بمعنى سر ، أما الطرف الثانى المسند إليه (الأباطح) فهو حقيقى مستعمل فيما وضع له.

٤-الطرف الأول – المسند – حقيقة والمسند إليه مجاز ، مثل : أنبت شباب الزمان الورود ، فالطرف الأول أنبت "المسند" حقيقة والطرف الثانى "شباب الزمان" المسند إليه مجاز ، لأنه مراد منه الربيع على سبيل الاستعارة الأصلية ، وقد أسند الإنبات إلى شباب الزمان على سبيل المجاز العقلى لعلاقة السببية، والمسند حقيقة والمسند إليه مجاز.

(١) دلائل الإعجاز ١١٧.

المجاز العقلي بين علمي المعاني والبيان :

أنكر السكاكي المجاز العقلي ، وأدخله في الاستعارة بالكناية ، وبذلك يخرجه من علم المعاني ، ويدخله في علم البيان ، ولتوضيح هذا نورد هذا المثال : أنبت الربيع البقل ، فالسكاكي يجعل هذا المثال منه قبيل الاستعارة بالكناية ويستبعد أن يكون من المجاز العقلي "وذلك بتشبيه الفاعل المجازي وهـو "الربـيع" بالفاعل الحقيقي – وهو الله-عزل وجل – في تعلق الفعل بهمـا ، ثـم يحذف المشبه به ويرمز إليه بشئ من لوازمه ، وهو الإنبات على سبيل الاستعارة بالكناية".[١]

ولعـل السكاكي لم يكن مقتنعاً كل الاقتناع بفكرة المجاز العقلي حين أقـبل نحوه يدرسه ويفلسف له ، وإنما فعل ما فعل مجاراة لمن سبقه ممن كتب حوله كالإمام عبد القاهر والزمخشري والفخر الرازي الذين تأثر بهم في كثير مما كتب.[٢]

ورد المتأخرون مذهب السكاكي في إنكار المجاز العقلي وعلى رأس هـؤلاء الخطيب القزويني الذي تعقبه وناقشه ورد عليه ، فمن هذه الردود قوله "ثم ما ذكره أي – السكاكي – منقوض بنحو قولهم : فلان نهاره صائم فـإن الإسـناد فيه مجاز ، ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان ، لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة".[٣]

---

(١) ينظر المفتاح للسكاكي ٢١٢.

(٢) المجاز في اللغة والقرآن الكريم د. عبد العظيم المطعني ١/٣٤٤.

(٣) الإيضاح ١٠٨.

وبذلك يدخل الخطيب القزويني المجاز العقلي في علم المعاني "على اعتبار أنه تتمة للأحوال التي تعرض للإسناد الخبري"[١] من التوكيد وتركه ، والحقيقة العقلية والمجاز العقلي ، كما أن الحقيقة العقلية والمجاز العقلي حـــالان من أحوال اللفظ وأنه يؤتى بهما لأحوال تقتضيهما ، لأن ملابسات الفعـــل تقتضي الإتيان بالمجاز العقلي عند قصد المبالغة وعدمها يقتضي الإتيان بالحقيقة العقلية، وبهذا يدخلان في تعريف علم المعاني.[٢]

وإذا كان بعض صور المجاز العقلي يمكن أن تحمل على الاستعارة بالكـــناية فـــإن كثيرا من الصور الأخرى لا يجوز حملها على الاستعارة بالكناية ، ولذا فالأولى حمل هذه الصور على الأغلب والأعم أي – المجاز العقلي – خاصة وأن كثيرا من البلاغيين والباحثين يدرجون المجاز العقلي في علم المعاني.

المجاز العقلي يقع في الإنشاء كما يقع في الخبر :

مثال ذلك ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾[٣] وقولـــه تعـــالى ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا﴾[٤] ففي الآيتيـــن السابقتين أسند الأمر في الأفعال (ابن – أوقد – اجعل) إلى السبب الآمـــر ، لأن باني الصرح والموقد على الطين هم العمال بأمر من هامان فهو السبب المباشر، فالعلاقة في تلك الأساليب الإنشائية السببية.

---

(١) المنهاج الواضح ٥٢.

(٢) ينظر : بغية الإيضاح ٧٢/١ ، والمعاني في ضوء أساليب القرآن ١١٧.

(٣) سورة غافر ٣٦.

(٤) سورة القصص من الآية ٣٥.

أحـــوال المسـند إليه

المقصود بأحوال المسند إليه :

ما يعرض له في الاستعمال من الذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، وغيرها من الأمور التي بها يطابق مقتضى الحال ولكل حالة من أحواله المذكورة مقام يستدعيها.

حذف المسند إليه :

مـــن المعـــروف أن الأصل في المسند إليه أن يذكر في الكلام لأنه الأصل لكونه محكوماً عليه بالمسند، ولذلك كان حذفه خلافاً للأصل ، لكنه لما اقتضى المقام حذفه ساغ عدم ذكره في الكلام، ولا يكون الحذف مقبولاً إلا إذا كان في الكلام قرينة تدل على المحذوف ، فإذا لم توجد تلك القرينة الدالـــة على المحذوف أو وجدت قرينة ضعيفة لا يعول عليها وكانت غير مصحوبة بغرض آخر يدعو إلى الحذف فلابد من الذكر جرياً على الأصل وإلا صار الكلام إلى التعمية والإلغاز.

وللدلالـــة على حسن الحذف : أنه متى ظهر المحذوف زال ما كان في الكلام من الرونق والحسن وصار إلى شئ بارد غير مقبول.

واعلم أن المناسبات قد تدعو أحياناً إلى ترجيح الذكر مع وجود قرينة تســـوغ الحـــذف تبعاً للأغراض المختلفة التي ترجع إلى أساليب البلاغيين ولذلك نجدهم يذكرون أحياناً ما يجوز حذفه، كما يحذفون أحياناً ما لا يوجد مسـانع مـــن ذكـــره، ولذا كان الحذف في اللغة "أمراً دقيق المسلك، لطيف

المأخذ شبيهاً بالسحر فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن[1] هذا ويحذف المسند إليه لدواع أهمها ما يلي:

١- مجرد الاختصار والاحتراز عن العبث بناء على الظاهر لدلالة القرينة عليه، واعتبر الذكر في ظاهر الأمر عند دلالة القرينة على المحذوف لأنه في واقع الأمر لا عبث من ذكره لأنه أعظم ركن في الإسناد، ومن أمثلة الحذف للاحتراز على العبث قول الشاعر:

سأشكر عمرا إن تراخت منيتي * أيادي لم تمنن وإن هي جلت
فتى غير محجوب الغنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

الأصل هو فتى، لكن لما كان ذكره أولاً دالاً عليه اعتبر ذكره بعد ذلك مرة ثانية عبثاً في ظاهر الأمر فحذف المبتدأ لذلك ومنه قول الشاعر:

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههم دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه
نجوم سماء كلما انقض كوكب بدا كوكب تأوي إليه كواكبه

الأصل أن يقال في البيت الثاني هم نجوم لكن لما كان المسند إليه مذكوراً في البيت الأول عد ذلك قرينة مسوغة لحذفه احترازاً من العبث.

ومن قول الشاعر:

اعتاد قلبك من ليلى عوائده وهاج أهواءك المكنونة الطلل

---

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦.

ربـع قـواء أذاع المعصـرات بـه   وكـل حـيران سـار ماؤه خضل

ومعـنى أذاع المعصـرات بـه أزالت ماءها بكثرة حتى ذهبت به وطمسته والحيران الساري وهو يجرى ليلاً ، قواء : لا أنيس به.

فـتقدير المحذوف : ذاك ربع قواء، أو هو ربع قواء، فحذف المسند إلـيه احـترازاً عـن العبث ، ومما ينبغي التنبيه عليه أن الأمثلة الثلاثة المذكـورة هـنا يعدها بعض البلاغيين من قبيل الحذف اتباعاً للاستعمال الـوارد عن العرب، ولا تناقض بين النكتتين لأن المثال الواحد يصلح أن يمثل به لأكثر من نكتة.

٢- ضـيق المقام عن إطالة الكلام بسبب ما يعرض للمتكلم من مرض أو ضـجر وغراية أو خوف من ضياع فرصة، فمثال الأول (ضيق المقام للمرض) قول الشاعر :

قـال لـي كـيف أنـت؟ قلت عليل * سـهر دائـم وحـزن طويـل

أي أنا عليل، فحذف المسند إليه لأنه مريض يضيق صدره عن إطالة الكلام، ومنه أيضاً قول الشاعر:

تسـاءل خـدن والأسى يتبع الأسى * خلـيلي كـيف الحـال؟ قلت سقيم

أي أنا سقيم فحذف المسند إليه لضيق المقام بسبب المرض.

ومثال الثاني (ضيق المقام بسبب الضجر والغراية) قول الله سبحانه حكاية عن السيدة سارة زوج إبراهيم عليه السلام ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ

﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١) أي أنا عجوز، لكنه لما كان في الأمر غرابة وأصابها الضجر من إخبارها بأنها ستلد بعد وصولها إلى مرحلة العقم ضاق صدرها عن إطالة الكلام بسبب ما انتابها من ألم التفكير في أمرها فتركت ذكر المسند إليه.

ومثال الثالث (خوف فوات الفرصة) أن تكون مع زميل لك في ميدان القتال ترقبان تحرك دبابات العدو لتدميرها فظهرت أمامك إحدى الدبابات فأخبرت زميلك قائلاً: دبابة ، أي هذه دبابة، فضيق المقام عن الإطالة بسبب الخوف من فوات الفرصة لتدمير الدبابة سوغ حذف المسند إليه.

٣- اختبار تنبه السامع أيتنبه إلى المسند إليه عند قيام القرينة الدالة عليه أم لا يتنبه إلا بالتصريح المسند إليه؟ كقولك لزميلك: نوره مستفاد من نور الشمس، تعني القمر، لكنك حذفته لتختبر زميلك هل يتنبه لمعرفة المسند إليه بدلالة ذكر الشمس أم لا؟ ومنه : أن تنتظر زميلاً لك فيحضر في ميعاده فتقول لمن يجلس معك : دقيق في ميعاده وتحذف المسند إلية اختباراً لذكاء السامع لتعرف هل سيتنبه ويدرك أنك تقصد فلاناً أم لا؟

٤- إيهام أن في تركه تطهيراً له عن لسانك أو تطهيرا للسانك عنه ، فمثال الأول قولك عن النبي صلى الله عليه وسلم: شفيعنا يوم القيامة والتقدير: رسول الله شفيعنا، لكنك تركت ذكر المسند إلية تطهيراً له من

---

(١) سورة الذاريات ٢٩.

الذكر على اللسان لكونه أجل من أن نتلفظ به على ألسنتنا التي دنستها النميمة.

ومـثال الـثاني قولك : مطرود من رحمة الله، تقصد إبليس ، لكنك حذفت المسند إليه احتقاراً له وتطهيراً للسانك عن الدنس بذكره.

٥- تـأتي الإنكـار إن مسـت إليه الحاجة، وذلك كقولك عن إنسان لئيم خسـيس، فقد حذفت المسند إليه هنا وهو اسم هذا الشخص الذي تعنيه ليتأتى لك أن تنكر أنك قصدته بهذا وذلك خوفاً منه أن يعاقبك على ما ذكرته عنه من وصفه باللؤم والخسة، وكذلك قولك عن وزير مرتش: لـص ماكـر، أو مرتش، فحذفت اسمه الذي هو مسند إليه ليكون لك متسعاً من الإنكار عند المؤاخذة على قولك.

٦- كون الخبر لا يصلح إلا للمسند إليه حقيقة أو ادعاء، فمثال الأول قولك عـن الله سـبحانه: عالم الغيب والشهادة، خالق الكون، يعز من يشاء ويذل من يشاء، فترك ذكر المسند إليه في الأمثلة لكونه متعيناً وهو الله سـبحانه، والخـبر في كل الأمثلة لا يصلح أن يسند إلى غيره تحقيقاً، ومـن ذلك قوله تعالى ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾[1] أي هم صم فحذف المسند إلـيه لتعيـنه لأن الكـلام عن المنافقين والخبر لا يصلح إلا له حقيقة، وكقولـك عـن خالد بن الوليد : سيف الله، بحذف اسمه لكون الخبر لا يصلح إلا له.

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨.

ومثال تعين الخبر للمسند إليه ادعاء قولك عن رجل مشهور بالعطاء والإنفاق: وهاب الألوف، فقد حذفت المسند إليه وهو اسم هذا الرجل لادعائك أن الخبر لا يصلح إلا له لاشتهاره بين الناس بالعطاء، ومن هذا القبيل قول الشاعر عن محبوبته :

غراء ميسام كأن حديثها * در تحدر نظمه منثور

التقدير : هي غراء، لكن حذف المسند إليه لادعاء الشاعر أن المسند لا يصلح إلا لها، وكقولك عن زميل لك في الدراسة اشتهر بخدمة الجميع، وقته لإخوانه.

التقدير : فلان وقته لإخوانه، لكنك حذفت اسمه لاشتهاره بتلك الأوصاف مدعياً أن الخبر لا يصلح لغيره.

٧- يحذف المسند إليه أيضاً لإخفاء أمره عن غير المخاطب، نحو أقبل أو سافر، تريد محمداً لكنك لم تصرح باسمه ليكون خافياً عن غير من تكلمه.

٨- ومن دواعي حذف المسند إليه لأغراض تتعلق باللفظ حذفه محافظة على الوزن كقول الشاعر :

على أنني راض بأن أحمل الهوى * وأخلص منه لا علي ولا ليا

أي لا علي شئ ولا لي شئ، فحذف المسند إليه وهو شئ لأن ذكره يخل بوزن البيت، ويحذف أيضاً محافظة على السجع في الكلام كقولهم : "من كرم أصله وصل حبله، أي وصل الناس حبله، فحذف المسند إليه

(الناس) وهو المسند إليه الأصلي، وهذا لا يمنع أن نائب الفاعل مسند إليه أيضاً ، وسر الحذف المحافظة على السجع ، كما يحذف محافظة على القافية كقول لبيد :

وما الناس والأهلون إلا ودائع * ولا بد يوماً أن ترد الودائع

حذف المسند إليه (الناس) – لأن الأصل أن يرد الناس– للمحافظة على القافية لأن عدم الحذف يجعل القافية مختلفة فتصير مرفوعة في الشطر الأول، منصوبة في الشطر الثاني، إلى جانب فساد الوزن.

ويعالج عبد القاهر قضية الحذف بطريقة أدبية لطيفة حيث يعرض فيها نماذج لألوان الحذف المختلفة، وتحليلها وبيان مزية الحذف لا بأس من الاطلاع على جانب من تلك النماذج للتعرف على طريقته وطريقة الآخرين في تناول هذا الموضوع بعد أن بين فضيلة الحذف جاء بأبيات حذف فيها المبتدأ.

... ثم قال : ومن المواضع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستئناف ، يبدأ بذكر الرجل ويقدمون بعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون كلاماً آخر ، فإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثل قول الشاعر :

هم حلوا من الشرف المعلى * ومن حسب العشيرة حيث شاؤا

بناة مكارم وأساة كلم * دماؤهم من الكلب الشفاء

الأســاة : الأطباء ، والكلم: الجرح، وكانوا يزعمون أن الذي عضه كلب شفاؤه في أن يشرب من دم ملك.

والمحذوف المبتدأ في أول البيت الثاني تقديره : هم بناة مكارم وإنما حذف لاستئناف ذكر تلك الصفات ولأنه دل عليه ذكرهم في البيت الأول، وبعد ذكر أبيات كثيرة في هذا الصدد يقول : فتأمل الآن هذه الأبيات.

وانظــر إلى موقعها في نفسك وإلى ما تجده من اللطف والظرف إذا أنت مررت بموضع الحذف منها .. ثم تكلف أن ترد ما حذف الشاعر وأن تخــرجه إلــى لفظك وتوقعه في سمعك فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت، (يقصد أن الذكر هنا يذهب بهاء الكلام وحلاوته) وأن رب حذف هو قلادة الجــيد، وقاعدة التجويد، ثم يقول : وإذ عرفت هذه الجملة من حال الحذف فــي المبتدأ فاعلم أن ذلك سبيله في كل شئ ، فما من اسم أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه وحذف في الحال التي ينبغي أن يحذف فيها إلا وتجد حذفه هناك أحسنه من ذكره وتجد إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به.[١]

يقول عبد القاهر عن حذف المفعول إذا حذف المفعول خصوصا فإن الحاجــة إليه أمس والطف كأنها فيه أكثر ، ومما يظهر بسببه من الحسن والرونق أعجب وأظهر.

(١) دلائل الإعجاز ١٤٦ - ١٥٣.

ثانياً : ذكر المسند إليه :

المسند إليه ركن أصيل في تركيب الجملة فهو واجب الذكر ما لم تقم عليه قرينة فحينئذ يجوز حذفه ويجوز ذكره ، وكما قلنا أن الحذف يكون لأغـراض ومقاصـد في الكلام ، فإن الذكر أيضاً يأتي لأغراض ودواع يتطلبها المقام ، ولا يقال حينئذ أن الحذف بليغ والذكر غير بليغ أو العكس، لأن البلاغة مراعاة مقتضى الحال ، فالذكر بليغ متى استدعاه المقام ووافق الحال ، والحذف بليغ كذلك متى استدعاه المقام واقتضاه الحال.

وعلى ذلك فالأغراض التي يذكر من أجلها المسند إليه كثيرة نذكر منها ما يلي:

١- **الإيضاح والتقرير** : مثال ذلك قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] ، كـرر إسم الإشارة (أولئك) مرتين لزيادة إيضـاح وتقرير لتميزهم على غيرهم فكما ثبت لهم التميز بالهدى ثبت لهم التميز بالفلاح.

ومنه قوله تعالى ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.[2]

---

(١) سورة البقرة الآية ٥.

(٢) سورة الحشر الآية ٢٣ - ٢٤.

فيمكن في غير القرآن الكريم أن يستغني عن المسند إليه (هو) ولكنه صرح بذكره في الآية في عدة مواضع لزيادة إيضاحه ، وليستقر في النفس مرتبطا بخبره وليفيد بتعريفه وتعريف الخبر أنه وحده الإله الواحد ، فضلا عـن ذلـك تـرى في الأسلوب هذا التناسق الموسيقي الذي يفقد إذا حذفنا المسند إليه.[1]

٢-تعظـيم المسند إليه والاستلذاذ بذكره : مثال ذلك قول البوصيري في مدح سيدنا محمد ص :

محمـــد ذكـــره روح لأنفســـنا   محمـد شـكره فـرض على الأمم

فكرر المسند إليه (محمد) مرتين إظهارا لتعظيمه ﷺ والتبرك بذكر اسمه، ومن ذلك قول الخنساء ترثي أخاها صخرا :

وإن صـــخرا لكافيـــنا وســـيدنا   وإن صـــخرا إذا نشـــتو لـــنحار

وإن صـــخرا لـــتأتم الهـــداة بـــه   كأنـــه علـــم فـــي رأســـه نـــار

فالخنســـاء لشدة حزنها وحرقتها على فقدان أخيها تكرر اسمه ، حتى كأنـــه حـــي تـــناديه ، وتشعرك بأنه لا أحد مثله ، وهو جدير بذلك الثناء والتقدير والتعظيم.

ومن هذا الباب أن يذكر الشاعر اسم صاحبته ثم يكرره ، وكان بمكنه الاســتغناء بضميره ، ولكنه يؤثر النص عليه لأن في ذلك ما يثير أشواقه ويلذ قلبه انظر إلى قول قيس :

---

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن الكريم ١٤٥.

ألا ليــت لبــنى لــم تكــن لي خلة   ولــم تلقــني لبــنى ولم أدر ماهيا

تكــرر لبنى في الشطر الثاني ، وكان يمكنه أن يكتفي بقوله ولم تلقني ولــم أدر ما هيا ، ولكن الشاعر يحرص على ذكر الاسم لأنه يحبه ويحب أن ينطق به.[1]

٣-**تحقــير المسند إليه** : مثل قولك حضر القاتل السفاح أمام المحكمة في جــواب مــن قال هل حضر فلان أمام المحكمة في جواب من قال هل حضر فلان أمام المحكمة؟

٤-**إظهار التعجب منه** : وذلك إذا كان الحكم غريباً يندر وقوعه نحو قولك : نعم علي يصرع الأسد في جواب من قال : هل علي يصرع الأسد؟

٥-**إطالــة الكلام وبسطه** : - ومنه قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى - عليــه السلام ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[2] وكــان يكفيه في الجواب عن الســؤال أن يقول : عصاي لكنه ذكر المسند إليه (هي) لبسط الكلام في هذا المقام في حضرة الذات العلية ، وليزداد بذلك شرفاً وفضلاً ، ولحبه الإطالــة فــي هذا المقام أجاب عن أشياء أخرى لم يقتضها السؤال فقال ﴿أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾.

---

(١) خصائص التراكيب ١٣٧.

(٢) سورة طه آية ١٧ - ١٨.

٦-**ضعف التعويل على القرينة** : وذلك إذا ما وُجدت قرينة تدل على المسند إليه لو حذف ، ولكن هذه القرينة ليست كاشفة مبينة ويخشى المتكلم إن هو عول عليها أن يلتبس المراد على السامع مثل قولك : أبو تمام نعم الشاعر ، فتذكر المسند إليه (أبو تمام) ، وذلك إذا ذكر في كلام سابق ، وطال عهد السامع به، أو ذكر معه كلام في شأن غيره من الشعراء.

٧-**التعريض بغباوة السامع ، وأنه لا يفهم إلا بالتصريح :**

مثل قولك لسامع القرآن : القرآن كلام الله.

ومنه قول الفرزدق في زين العابدين بن علي ﷺ :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ∴ والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ∴ هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ∴ بجده أنبياء الله قد ختموا

وليس قولك من هذا بضائره ∴ العرب تعرف من أنكرت والعجم

فالفرزدق في هذه الأبيات يعرض بهشام بن عبد الملك ، فذكر المسند إليه هذا وكرره تعريضا بغبائه حتى لا يعرف المتحدث عنه إلا بذكره ، وقد عرفته الدنيا كلها وفي هذا التعبير فيه من الإهانة ما فيه.

وقصة هذه الأبيات أنه لما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود ليستلمه فلم يقدر ، لازدحام

الحجـيج فجلـس على كرسـي نصـب له ينظر الناس ومعه جماعة من أهـل الشام ، وبينما هو كذلك ، إذ أقبل على زين العابدين بن الحسين بن علـي بن أبي طالب فطاف بالبيت ، ولما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حـتى استلم فسأل رجل من أهل الشام هشام بن عبد الملك : من هذا الذي هابـه الناس هذه الهيبة؟ فقال هشام لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشـام ، وكـان الفـرزدق حاضـرا فقال أنا أعرفه ثم أنشد هذه الأبيات السابقة.[١]

(١) ينظر : في علوم البلاغة ٧٥.

تعريف المسند إليه

قد يعمد الأديب إلى المسند إليه فيأتي به معرفاً بأحد أنواع المعارف، ليحقق بذلك أغراضاً بلاغية تؤكد المعنى وتقويه.

والبلاغيون على أن المقام إذا اقتضى التعريف، فأتى المتكلم بالمسند إليه معرفاً كانت الفائدة أتم.

توضيح ذلك : أن الغرض من الإخبار -كما مر- إفادة المخاطب الحكم أو لازمه ولازم الحكم هو : أيضاً حكم، لأن المتكلم كما يحكم في الأول بوقوع النسبة بين الطرفين، يحكم هنا بأنه عالم بوقوع النسبة.

ولا شك أن احتمال تحقق الحكم كلما كان بعيداً من الذهن كان الإعلام به أكبر فائدة، وكلما كان أقرب كانت الفائدة أضعف.

وبعده بحسب تخصيص المسند إليه والمسند، فكلما ازداد تخصيصاً ازداد الحكم بعداً، وكلما ازدادا عموماً ازداد الحكم قرباً. وإن شئت فاعتبر حال الحكم في قولنا: "شئ ما موجود" يعني أن الفائدة فيه ضعيفة، لأن كل إنسان يعلم بوجود شئ ما ، فيكون الحكم قريباً، ومن ثم تكون الفائدة ضعيفة بخلافها في قولنا : "زيد حافظ للتوراة" فليس كل إنسان يعلم حصول حفظ معين من إنسان معين، فيكون الحكم بعيداً، ومن ثم تكون الفائدة أتم وأقوى. والمراد بتخصيص المسند إليه: كما له بالتعريف.

والنكرة وإن أمكن أن تخصص بالوصف بحيث لا يشاركه فيه غيره كقولك: "أعبد إلها خلق السماء والأرض" و"لقيت رجلاً سلم عليك اليوم

وحـــده قبل كل أحد" لكنه لا يكون فى قوة تخصيص المعرفة، لأنه وضعى بخلاف النكرة[1].

وبالجملة ، فإن يؤتى بالمسند إليه معرفة؛ لتكون الفائدة أتم، وتلك هى مهمـــة البلاغى أو الأديب الذى من شأنه أن يكون على علم تام بالمواضع الـــتى يؤثر فيها طريق من طرق التعريف على غيره، أو يكون التعريف فيها أبلغ من التنكير.

والتعريف يكون على وجوه شتى، فقد يكون بالإضمار أو بالعلمية أو بالموصولية أو بالإشارة، أو بأل ، أو بالإضافة إلى أحد المعارف.

ولكـــل حالة من حالات التعريف هذه دواع ونكات بلاغية نستعرض بعضاً منها فيما يلى :

أ- تعريف المسند إليه بالضمير :

يكـــون المسند إليه ضميراً فى ثلاث مقامات – التكلم – والخطاب- والغيـــبة، فـــإذا ما تحدث المتكلم عن نفسه كان المقام مقام ضمير المتكلم، وذلك كقول النبى ﷺ يوم بدر :

أنـــا النـــبى لا كـــذب   أنـــا ابـــن عـــبد المطلـــب

---

(١) راجـــع المطـــول لســـعد الدين التفتازانى صـــ٧٠ ، وراجع أيضاً بغية الإيضاح جـــ١ صـــ٧٠، وعـــروس الأفراح للسبكى صـــ٢٨٧ جـــ١ ضمن شروح التلخيص ، وينظر أيضاً : من بلاغة النظم العربى للدكتور/ عبد العزيز عبد المعطى عرفة جـــ١ صـــ١٤٦.

وإذا مـا خاطـب المتكلم غيره كان المقام مقام الخطاب، ومثال ذلك قولـه تعـالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾[1]، وكقول أمامة الخثعمية تخاطب ابن الدمينة :

أنـت الـذى أخلفتـنى ما وعدتنى ... وأشـمت بـى مـن كان فيك يلوم

وتعريف المسند إليه بضمير الخطاب "أنت" كشف عن مرارة الشعور بـإخلاف الوعـد من الحبيب وشماتة العذال، ولذا فقد آثرت هذه المحبوبة المعذبـة أن تخاطب محبوبها بضمير الخطاب "أنت" قصداً منها إلى إيقاظ قلبه لعله يعرف خفقة الحب ولوعة العشق، ومرارة إخلاف الوعد.

وإذا مـا تحدث المتكلم عن غائب، فلابد أن يتقدم فى الكلام ما يدل عليه لفظاً أو معنى، أو توجد فى الكلام قرينة حالية تدل عليه، فمثال ما يـدل على الغائب لفظاً : قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[2] فقـد ورد لفظ الجلالة (الله) أولاً ثم جئ بضميره "هو" ثانـياً ، ومثال ما يدل على الغائب معنى: قوله تعالى: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[3] فالضمير "هو" يعود إلى العدل الذى دل على معناه لفظ "اعدلوا" ومـثال ما دلت عليه قرينة الحال قوله تعالى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾[4] فالحال هنا دلت على أن الحديث فى الآية عن الميت ، ومثل

---

(١) آية ٩-١٠ الضحى.
(٢) آية ٨٧ الأعراف.
(٣) من الآية ٨ المائدة.
(٤) من الآية ١١ النساء.

ذلك قوله تعالى ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[١] أي الشمس ، فالضمير في توارت يعود إلى الشمس ، وهي لم يسبق لها ذكر في الكلام ، ولكن دل عليها لفظ العشي قبل ذلك والتوارى بالحجاب ، وسياق الكلام.

هـذا .. والأصل في ضمير الخطاب أن يكون لمعين كأن تقول : إن زرتني أكرمتك : تريد مخاطبا معينا ، وقد يراد بالخطاب العموم فيكون موجها إلى كل من يتأتى منه الخطاب ، وهذا يفيد الأسلوب مزية من حيث يشعر هـذا العموم بأن الأمر جدير بأن يكون ذائعاً ، وأنه لا يختص بمخاطب دون مخاطب، ومن شواهد عموم الخطاب قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[٢] المراد بالخطاب هنا كل من يتأتى منه الرؤية ، وذلك للإشارة إلى أن هذه الصور المتناهية في الفظاعة تناهت أيضاً في الظهور ، فلا تختص بها رؤية راء بل كل من تتأتى منه الرؤية داخل في هذا الخطاب ، وفيه إشارة أيضاً إلى الرغبة في تعميق هـذه الصور الفظيعة المنكرة في وجدان كل راء لتكون زجراً بليغاً للناس جميعاً.[٣]

(١) من الآية ٣٢ ص.
(٢) من الآية ١٢ السجدة.
(٣) ينظر خصائص التركيب ١٤٦ – ١٤٧.

ب-تعريف المسند إليه بالعلمية :

يؤتى بالمسند إليه علما للأغراض الآتية :

١-إحضـــاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه ليكون متميزا عن جمـــيع مـــا عداه ، كقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾(١) وقوله ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(٢) وقول الشاعر :

الله يعلـــم مـــا تركـــت قـــتالهم حـــتى علـــوا فرســـى بأشقر مزبد

وقوله :

أبـــو مـــالك قاصـــر فقـــره علـــى نفســـه ومشـــيع غـــناه

فقــد جئ بالمسند إليه فى الأمثلة المذكورة علما ليكون مدلول المسند إلـــيه حاضرا بعينه فى ذهن السامع بحيث يكون متميزا لديه عن جميع ما عداه فتلتفت إليه نفس السامع.

٢-تعظـــيم المسند إليه أو إهانته ، وذلك فى مقام المدح أو الذم إذا كان فى اســـمه أو لقـــبه أو كنيـــته ما يصلح لإفادة المدح أو الذم، كما فى قول المتنبى :

أبـــو المســـك لا يغنى بذنبك عفوه ولكـــنه يغشى بعـــذرك حقـــده

---

(١) سورة الإخلاص ١.

(٢) سورة الأنعام ١٢٤.

المقـــام هـــنا للمدح ولذا جئ المسند إليه من الكنى الدالة على المدح فقيل: أبو المسك ، وقد يكون في الاسم نفسه ما يشعر بالمدح كقولك: ضياء جاء، وسرور قادم، كما يكون في الاسم ما يشعر الذم، كقول امرئ القيس.

لقــد طمـــح الطماح من بعد أرضه ∴ ليلبســـني مـــن دائــه مــا تلبســا

فقد استخدم الطماح وهو اسم لرجل من بني أسد للدلالة على الذم.

٣- قصـــد التفاؤل بذكر المسند إليه أو التطير، وذلك عندما يدل اللفظ على شيء من ذلك، كقولك في التفاؤل: سعد في دارك، وناجح عندك، وفي التطير: السفاح قدم، واللص في بيتك.

٤- إيهام أنه لا يزول عن الخاطر ، كقولك : ليلى أحبتي.

٥- التبرك به كقولك عن النبي ﷺ سيدنا محمد رائدنا، أو شفيعنا.

٦- القصد إلى أن يكنى به عن معنى يصلح له الاسم، نحو : أبو لهب فعل كذا، كناية عن كونه من أصحاب جهنم، وكقولك : أبو المجد فعل كذا، فهو وإن كان علماً لكنه قبل نقله إلى العلمية كان معناه : أصل المجد، ومـــن هـــنا جـــاز لنا بعد نقله إلى العلمية أن نقصد إلى هذا المعنى الأصلي بطريق الكناية.

جـ- تعريف المسند إليه باسم الإشارة :

يؤتى به اسم إشارة لدواع بلاغية أهمها :

١- تمييز المسند إليه أكمل تمييز إذا اقتضى الحال ذلك، كأن يكون المقام للمـدح، أو يكون المسند إليه مختصاً بحكم غريب خارج عن المألوف فتمييز المسند إليه حينئذ وإحضاره باسم الإشارة الذى يجعله كأنه مشاهد محس يكون أعون على كمال المدح أو كمال التنويه بمن اختص بالحكم الغريب، ومن المدح أو كمال التنويه بمن اختص بالحكم الغريب ، ومن المدح قول ابن الرومي :

هـذا أبو الصقر فرداً في محاسنه ... من نسل شيبان بين الضال والسلم

يمدحـه بأنـه من سكان البادية وقد جمع من الصفات الكريمة قدراً جعله فرداً فى تلك الصفات ويقول أنه من قوم عظام ولذلك جاء المسند إليه اسم إشارة ليميز أكل تمييز.

ومثله قول الشاعر :

أولـئك قـوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا

يمدحهم بأنهم بناة للمكارم وأوفياء للعهود أن لهم عزماً وبأساً ولذلك ميزهم باسم الإشارة (أولئك) ليكونوا كالمشاهدين المحسين.

ومنه قول المتنبي يمدح سيف الدولة :

أولـئك أنـياب الخلافـة كلهـا ... وسـائر أمـلاك الـبلاد الـزوائد

لما كان المقام للمدح عبر عنهم باسم الإشارة ليميزهم أمام السامعين أكمل تمييز.

ولا يخفــى أن فــي أنياب الخلافة استعارة رائعة من نوع الاستعارة بالكناية، مثال ما اشتمل على غرابة في الحكم قول ابن الراوندى :

كـم عـــاقل عـــاقل أعيت مذاهبه ✻ وجـــاهل جـــاهل تلقـــاه مـــرزوقاً
هـــذا الـــذى تـــرك الأوهام حائرة ✻ وصـــير العـــالم الـــنحرير زنديقاً(١)

جئ بالمسند إليه اسم إشارة (هذا الذى) قصداً إلى تمييزه أكمل تمييز لمـــا اختص به من حكم غريب – وهو أن أصحاب العقول الكاملة ضاقت بهـــم ســـبل العيش بينما يعيش الجهلاء فى سعة من الرزق– ترك العقول حائرة والعالم النحرير زنديقاً خروج هذا الحكم عن منطق العقل والحكمة.

٢– الـــتعريض بغباوة السامع وأن الشئ لا يتميز عنده إلا بالحس ، كقول الفرزدق :

أولـــئك آبـــائى فجئـــنى بمـــثلهم ✻ إذا جمعتـــنا يـــا جريـــر المجـــامع

عـــبر بأولئك ليفيد بأن جريرا من الغباء بمكان بحيث لا يدرك فضل هؤلاء إلا عن طريق الإشارة الحسية.

ويمكـــن أن يكون البيت شاهداً للغرض الأول وهو تمييز الممدوحين أكمل تمييز ، ومن التعريض بغباوة السامع قولك لمن يعبث فى المسجد: هذا

(١) عـــاقل الثانى نعت للأول ، وجاهل الثانى نعت للأول، أى كامل العقل وكامل = الجهل، والأوهام : أريد بها العقل ، والنحرير : الحاذق الماهر ، والزنديق المنحرف فى العقيدة.

بيت الله، وقولك لمن يستخف بتلاوة القرآن: هذا كلام الله، لأن العبث في المسجد والإعراض عن تدبر القرآن دليل على غباء السامع وأنه في الأول لا يميز بين المسجد وغيره من الأمكنة وفي الثاني لا يميز بين كلام الله سبحانه وكلام غيره من حيث وجود الإنصات قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(١) ولهذا عبر له عن ذلك بالإشارة الحسية.

٣- القصد إلى تعظيم المسند إليه بالقرب، بأن ينزل قربه من النفس منزلة قرب المسافة فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للقريب تعظيماً له، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(٢) وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾(٣) وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا﴾(٤) فالتعبير باسم الإشارة في الآيات لتعظيم المسند إليه.

٤- القصد إلى تحقير المسند إليه بالقرب فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للقريب، وذلك لأن الأمر الحقير لا يمتنع عن الناس بل يكون قريب الوصول سهل التناول واقعاً بين أيديهم فالحقارة تناسب القرب المكاني وتلازمه بوجه ما، ولذلك تنزل دنو منزلته منزلة قرب المسافة، كقوله تعالى -حكاية عن المشركين في استهزائهم بالرسول ﷺ

---

(١) سورة الأعراف ٢٠٤.

(٢) سورة الإسراء ٩.

(٣) سورة آل عمران آية ٦٢.

(٤) سورة آل عمران آية ١٩١.

﴿أَهَٰذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾[1]- وقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾[2] ففي الأمثلة الثلاثة جاء المسند إليه اسم إشارة للقريب للدلالــة علــى مــا يقصــد إليه من معنى التحقير بتنزيل دنو المنزلة والانحطاط منزلة قرب المسافة.

٥- القصد إلى تعظيم المسند إليه بالبعد فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للبعــيد تنزيلاً لبعد درجته وعلو مكانته منزلة بعد المسافة، وذلك لأن الأمــر العظيم يتأبى على الناس ويبتعد عنهم لجلاله ورفعة شأنه، ولذا كــان التعظــيم مناسباً للبعد المكاني ومستلزماً له بوجه ما، ومثال ذلك قولــه تعــالى: ﴿الم ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] جاء المسـند إلــيه اســم إشارة للبعيد للتعظيم ، إشارة إلى بعد درجته في الهدايــة، وقولــه تعالى — حكاية عن امرأة العزيز ﴿فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾[4] لم تقل فهذا- وهو حاضر معهن رفعاً لمنزلته في الحسن واســتحقاقاً لأن يحــب ويفتتــن به واستبعاداً لمحله[5] وقوله تعالى ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾[6]عــبر عن الجنة باسم الإشارة البعيد تعظيماً لها وقصداً إلى بيان علو منزلتها ومكانتها.

(١) سورة الفرقان ٤١.

(٢) سورة العنكبوت ٦٤.

(٣) سورة البقرة ١ ، ٢.

(٤) سورة يوسف ٣٢.

(٥) الكشاف جـ٢ صـ٣١٨.

(٦) سورة الأعراف ٤٣.

٦- القصد إلى تحقير المسند إليه بالبعد فيعبر عنه باسم الإشارة الموضوع للبعيد تنزيلاً لبعده عن ساحة عز الحضور والخطاب منزلة بعد المسافة لأن الأمر الحقير من شأنه أن لا يلتفت إليه الناس ويبعدوه عنهم، فمن هذا الوجه تكون الحقارة مناسبة للبعد المكاني كقولك : ذلك اللعين فعل كــذا، عبرت عنه باسم الإشارة التي تدل على البعد -مع أنه حاضر- تحقــيراً له وتــنزيلاً لحقارته وعدم الالتفات إليه منزلة بعد المسافة ، وكقوله تعالى:﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾(١).

٧- التنبــيه على أن المشار إليه الموصوف بوصف أو أوصاف جدير -مـــن أجل ما وصف به- باستحقاقه ما ذكر بعد اسم الإشارة من جزاء حســناً كان ذلك الجزاء أو سيئاً، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢) عقــب المشار إليه وهو -الذين يؤمنون- بأوصاف متعددة من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة . . . إلخ ثم عرف المسند إليه باسم الإشارة تنبيهاً على أن المشار إليهم أحقاء بمـــا يــرد بعد أولئك وهو كونهم على الهدى عاجلاً في الدنيا والفوز بالفلاح آجلاً من الآخرة من أجل اتصافهم بالأوصاف المذكورة(٣).

---

(١) سورة الماعون ١ ، ٢.

(٢) سورة البقرة ٣-٥.

(٣) الكشاف جـــ١ صـــ١٤١.

ومـــن ذلـــك قولك : الطالب المجدّ هو الذى لا يؤخر عمل اليوم إلى الغـــد ويتفانى فى أداء واجبه ثم يتوكل بعد ذلك على الله سبحانه ذلك جدير بأن يكون من الأوائل ويستحق المكافأة، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾(١) فقد أشير إلى الكاتمين ما أنزل الله إلـــيهم بأولـــئك للتنبيه على أنهم يستحقون هذا الجزاء الحاسم من أجل ما وصفوا به.

د- تعريف المسند إليه بالموصولية :

يشـــير الإمام عبد القاهر إلى جانب من أسرار التعريف الموصولية عـــند حديثه عن "الذين" فيقول: "إعلم أن لك فى الذى علما كثيراً، وأسراراً جمـــة وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها اطلعت على فوائد تؤنس النفس، وتثلج الصدر بما يفضى بك إليه من اليقين، ويؤديه إليك من حسن التبيين ، والوجه فى ذلك أن تتأمل لأى غرض وضع، وأشياء وصفوه بها.

فمن ذلك قولهم: إن "الذى" اجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بـــالجمل كما اجتلب "ذو" ليتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس، يعنون بذلك أنك تقول: مررت بزيد الذى أبوه منطلق ، وبالرجل الذى كان عندنا أمـــس، فتجدك قد توصلت بالذى إلى أن ابنت زيداً من غيره بالجملة التى هى قولك: أبوه منطلق، ولولا "الذى" لم تصل إلى ذلك، كما تقول : مررت

(١) سورة البقرة ١٥٩.

برجل ذي مال، فتتوصل "بذي" إلى أن تبين الرجل من غيره بالمال، ولولا "ذو" لـم يـتأت لك ذلك إذ لا تستطيع أن تقول: برجل مال، ويذكر كلاً ما كثيرا حول استخدام "الذي" ثم يقول : "وعلى الجملة فكل عاقل يعلم بون ما بيـن الخبر بالجملة مع الذي وبينها مع غير الذي، فليس من أحد به طرق إلا وهـو لا يشك أن ليس المعنى في قولك: هذا الذي قدم رسولاً، كالمعنى إذا قلـت : هذا قدم رسولا من الحضرة، وليس ذاك إلا أنك في قولك: هذا قـدم رسولا من الحضرة، مبتدئ خبراً بأمر لم يبلغ السامع ولم يبلغه، ولم يعلمه أصلاً.

وفـي قولـك: هـذا الذي قدم رسولاً، معلم في أمر قد بلغه أن هذا صاحبه، فالجملة مع الذي ينبغي أن تكون جملة قد سبق من السامع علم بها فاعرفه فإنه من المسائل التي من جهلها جهل كثيراً من المعاني ودخل عليه الغلط في كثير من الأمور[١]"

ويذكـر البلاغـيون أنـه يؤتى بالمسند إليه اسم موصول لدواع بلاغية تقتضي ذلك ومنها :

١- عدم علم المخاطب بالأحوال المختصة بالمسند إليه سوى الصلة كقولك لزميلك: الذي كان معنا بالأمس رجل عالم، فقد جئ بالمسند إليه معرفاً بالموصـولية لأن المخاطب لا يعلم من أمره شيئاً سوى أنه كان معهم بـالأمس، وكقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ

(١) دلائل الإعجاز ١٩٩-٢٠١.

مثل يوم الأحزاب﴾(١) فالقرآن يحدثنا عما قاله مؤمن آل فرعون لقومه يحذرهم فيه عاقبة تكذيب موسى أو التعرض له، وقد جاء المسند إليه اسم موصول لأن المخاطبين لم يعرفوا من أمر هذا الرجل إلا أنه آمن بموسى عليه السلام، ولذلك تعينت الصلة طريقاً إلى التعريف بالرجل، وقوله تعالى ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾(٢) فالقرآن يحدثنا أن أحد الرجلين مشايع لموسى والآخر مناوئ له وما أن رآه مشايعه حتى استغاث به فكان ما حدث من قتل موسى عليه السلام للرجل، فالمخاطبون لا يعلمون من أمر هذا الرجل إلا أنه من شيعة موسى فعبر عنه بالصلة التي يعهدونها.

٢- استهجان التصريح بالاسم، بأن يكون معناه منفراً، كقولك: الذي يخرج من أحد السبيلين ناقض للوضوء، عبرت عنه بالموصولية لأن في مدلوله ومعناه قبحاً ونفرة، ومنه على رأي بعض البلاغيين قوله تعالى: ﴿وراودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾(٣) بناء على أن امرأة العزيز (زليخاء) قد أرادت من سيدنا يوسف عليه السلام أن يجلس منها مجلس الرجل من أهله فامتنع، ولشناعة الحادث -بحيث يستهجن ذكر اسم الداعية إليه- ترك التصريح باسمها وعبر عنها باسم الموصول.

(١) سورة غافر الآية ٣٠.
(٢) سورة القصص ١٥.
(٣) سورة يوسف ٢٣.

لكــن المشــهور أن التعبير باسم الموصول في الآية إنما جاء لزيادة تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو نزاهة يوسف عليه السلام وطهارة ذيلــه، والتعبيــر باسم الموصول أدل على ذلك من قوله امرأة العزيز أو زليخا، لأن كونه في بيتها ومولى لها يوجب قوة تمكنها من المراودة ونيل المراد فإباؤه عنها وعدم الانقياد لها يكون غاية في النزاهة والطهارة.

٣- أن يكــون الغرض تفخيم المسند إليه وتعظيمه كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[١] فإن في هذا من التفخيم ما لا يخفى، لأن المراد أن مــا أحــاط بأولئك القوم من الماء لا يدركه وهم ولا يحده وصف ولهذا عبر (بما) الموصولة المبهمة، ومنه قول الشاعر :

مضى بها ما مضى من عقل شاربها وفــي الــزجاجة بــاق يطلب الباقي

فالتعبير بالموصول (ما مضى) فيه إبهام لبيان أن ما حدث لا تحيط به العبارة ولا يعلم مقداره.

٤- التنبــيه علــى خطــأ من المخاطب أو غيره، ومن ذلك قول عبدة بن الطبيب.

إن الذيــن تــرونهم إخوانكــم يشــفي غليل صدورهم أن تصرعوا

فهــو يحــذر أبناءه من وثوقهم بجماعة يحسبونهم إخواناً لهم لكنهم يتمــنون لهم السوء ولذا كان التعبير بالموصول دالا على التنبيه لهم على الخطأ الذي وقعوا فيه، ومنه قول الشاعر :

إن الذيــن حســبتهم فــي عسرة هــم أثــرياء يملكــون ضــياعاً

---

(١) سورة طه ٧٨.

عبر باسم الموصول لتنبيه المخاطب على الخطأ في ظنه وحسبانه.

٥- أن يكون الغرض تشويق السامع إلى ما يذكر بعد وفي مضمون الصلة ما يشوق إليه كما تقول إن الذي اهتز له إيوان كسرى مبعث النبي ﷺ وقولك: الذي يقف في وجه الحاكم فلان، ففي مدلول الصلة في المثالين من الغرابة ما يحرك في النفس عوامل الشوق لأن تعرف ذلك الذي اهتز له إيوان كسرى، أو الذي يقف في وجه الحاكم فيتمكن الكلام من النفس فضل تمكن.

٦- الإيماء إلى طريق بناء الخبر بمعنى الإتيان بالموصول والصلة للإشارة إلى أن بناء الخبر عليه من أي وجه وأي طريق من الثواب والعقاب أو المدح والذم، وحاصل ذلك: أن تأتي بالفاتحة على وجه ينبئ الفطن على الخاتمة، فإذا قلت : الذي يواظب على الحضور، فلابد أن يتوقع المخاطب أن يكون الخبر فوزاً في نهاية العام، فإذا ذكرت الخبر وقلت: يجتاز الامتحان بنجاح كنت قد أوحيت وأشرت إلى هذا الخبر في بداية الكلام، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾(١) لأن في مدلول الصلة -وهو الاستكبار- ما يشير إلى أن الخبر المبني عليه أمر من جنس العقاب والإذلال بخلاف ما لو ذكرت أسماؤهم الأعلام، وقوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾(٢) ففي مدلول

---

(١) سورة غافر ٦٠.

(٢) سورة الكهف ١٠٧.

الصلة –وهو الإيمان والعمل الصالح– ما يدل على أن الخبر المحكوم به من نوع الإثابة، والجزاء الحسن.

وربما جعل الإيماء إلى نوع الخبر وسيلة إلى تعظيم أمراً والتهوين من شأنه، فمثال التعظيم قول الفرزدق :

إن الذي سمك السماء بنى لنا ... بيتاً دعائمه أعز وأطول

يقول: إن الذي رفع السماء بنى لنا مجداً وشرفاً لا يطاولهما شئ وجعل قبيلتنا سيدة القبائل وقد عبر عن المسند إليه بالموصول وهو يومئ إلى أن الخبر المترتب عليه من نوع الأبنية الفخمة مع ما في هذا من التعريض بتعظيم شأن بيته، لأن بانيه هو ذلك الذي رفع السماء وأي بناء أرفع وأروع من سماء هي صنع ذلك القادر المبدع؟ ولو عبر بغير الموصول لتغير المعنى.

ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾[1] التعظيم هنا شأن غير الخبر والتعبير بالموصول في الآية يومئ إلى أن طريق بناء الخبر مما ينبئ عن الخيبة والخسران وتعظيم شأن شعيب عليه السلام.

ومثال ما جعل ذريعة إلى الإهانة لشأن الخبر قولك: إن الذي لا يعرف الفقه صنف فيه كتاباً أو أن الذي لا يجيد التفكير كتب مقالاً، ففي الصلة في المثالين إيماء إلى أن الخبر المترتب عليهما من نوع التصنيف

(١) سورة الأعراف ٩٢.

والإنشاء وفيهما مع ذلك تعريض بالتهوين من شأن الكتاب أو المقال وإنهما من النوع الساقط المبتذل لأنهما صنع من لا يحسن التصنيف والتفكير.

هـ- تعريف المسند إليه بالإضافة :

المقصود بتعريف المسند إليه بالإضافة : إضافته إلى شئ من المعارف وذلك لأنواع بلاغية يقتضيها المقام ومن أهمها :

١- الاختصار لكون الإضافة أقصر طريق إلى إحضار المسند إليه في ذهن السامع كقول جعفر بن علبة الحارثي:

هواي مع الركب اليمانين مصعد ... جنيب وجثماني بمكة موثق[1]

فمعنى هواي أي الذي أهواه، عبر عنه بالإضافة للاختصار المطلوب في هذا المقام وهو الضيق وفرط السآمة لكونه في السجن وحبيبه راحل مع هؤلاء القوم، ومثله قول الشاعر :

مناي طواه الموت وانقض سامره ... ودارت على صفو الحياة دوائره

لقد أمضه الألم لفقد حبيبه لأنه ودع بعده مباهج الحياة ولذا جاء بالمسند إليه معرفاً بالإضافة للاختصار بسبب ما فيه من ضيق وألم.

٢- تضمن الإضافة تعظيماً لشأن المضاف إليه أو المضاف أو غيرهما، فمثال الأول قولك : عبدي حضر، وعلمي في خدمة الطلاب، أفادت الإضافة في المثالين تعظيم شأن المضاف إليه، ومثال الثاني قولك:

(١) هواي أي مهوي، مصعد، أي مبعد ذاهب في الأرض، الجنيب : المجنوب المتبع، الجثمان: الشخص موثق : مقيد.

عميد الخليفة ركب ، التشريف في المثال للمضاف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا ﴾(١) الإضافة في الآية تفيد تشريف شأن المضاف وهم العباد بنسبتهم إلى الرحمن.

ومثال الثالث -تعظيم شأن غير المضاف والمضاف إليه- قولك: شيخ الأزهـر زارنا ، الإضافة أفادت تعظيم شأن المتكلم وهو ليس مضافاً ولا مضافاً إليه، ومنه قولك عميد الكلية كلمني.

٣- تضـمن الإضـافة تحقـيراً للمضاف مثل : ولد اللص حاضر، وأخو المهمـل قائم، أو للمضاف إليه مثل: ضارب زيد حاضر، وزميل على مهمـل أو تحقير غيرهما مثل : ولد اللص يجالس زيداً وجليس السوء يصاحب علياً.

٤- إغـناء الإضـافة عن تفصيل متعذر مثل : اتفق أهل الحق على كذا واتفـق مجلس الوزراء على الخطة، جاء المسند إليه في المثالين معرفاً بالإضافة لتعذر التفصيل وهو ذكر كل واحد من أهل الحق باسمه، وكذا ذكر كل واحد من مجلس الوزراء باسمه، ومن هنا أغنت الإضافة عن هذا التفصيل.

وقـد يكون هذا التفصيل ممكنا لكن يلجأ إلى الإضافة لأنه يمنع من التفصـيل مانع، كتقديم بعض على بعض من غير مرجح، كقولك: حضر الـيوم علماء البلد، أو قادة الجيش وصلوا، فإنه يمكن في المثالين أن تذكر

(١) سورة الفرقان ٦٣.

الأسماء إلا أننا قد نذكر اسماً قبل آخر فيوقع ذلك في الحرج ولذا لجأنا في هذه الحالة إلى الإضافة.

و-تعريف المسند إليه بـ (أل):

يؤتى بالمسند إليه معرفاً بـ "أل" لأغراض بلاغية منها:

١- الإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب، وذلك لتقدم ذكره صراحة أو كناية، فمما تقدم فيه ذكر المسند إليه صراحة قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾(١) فقد ذكر المصباح والزجاجة منكرين ثم أعيدا معرفين. وتلك هي لام العهد الصريحي، ومثال ما جاء فيه تقدم ذكر المسند إليه عن طريق الكناية قوله تعالى:﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾(٢) أي ليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها(٣) وذلك لأن مريم كانت قد نذرت ما في بطنها للقيام على خدمة بيت المقدس، والذي يقوم بعبء هذه الخدمة لا يكون إلا ذكراً، فلما وضعتها أنثى قال متحسرة ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ وجاء قوله تعالى ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ للإشارة لمعهود سابق وهو قولها ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فلفظ (ما) كناية عن الذكر باعتبار اختصاص التحرير بالمذكور.

---

(١) النور ٣٥.

(٢) آل عمران ٣٦.

(٣) الإيضاح ١٢٢.

٢- إفــادة جــنس الحقيقة، مثل قولك الرجل خير من المرأة أي أن جنس الرجل خير من جنس المرأة، والحرير أفضل من القطن، والدينار خير من الدرهم.

٣- الإشارة إلى بعض مبهم غير معلن من أفراد الحقيقة، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾[1] فالبعض في الآية تدل علــيه قرينة الأكل، وسيدنا يعقوب -عليه السلام- يخشى أن يأكل ابنه ذئب ما من أفراد جنس الذئاب، ولا يخشى أن تأكله كل الذئاب ، كما لا يخشــى أن يأكله جنس الذئاب، لأن الجنس أمر معنوي لا يأكل ولا يشرب.

(١) يوسف ١٣.

تنكير المسند إليه

يؤتى بالمسند إليه نكرة للأغراض البلاغية الآتية :

١-أن يقصد بالحكم إلى فرد غير معين إما لأن الغرض لا يتعلق بتعيينه وإن كان معينا ، وأما لأن المتكلم لم يعلم جهة من جهات التعريف ، كعلمية أو إشارة أو غير ذلك ، فمثال الأولى : قول الله تعالى ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾[1] أى فرد من أشخاص الرجال ، جاء المسند إليه منكرا لأنه لم يتعلق بتعيينه غرض ، لأنه لا يهم المخاطبين من هذا الحديث إلا ما حصل من هذا الرجل بغض النظر عن اسمه ، ومنه قول المتنبي :

وغاية المفرط في سلمه كغاية المفرط في حربه
فلا قضى حاجته طالب فؤاده يخفق من رعبه

اتجه الشاعر بدعائه إلى فرد ما يخفق قلبه رعبا من حادث الموت ما دام يعلم أن المصير واحد وأنه لا محالة آت.

ومثال الثاني – ما لا يعمل جهة من جهات تعريفه – قولك لزميلك : حضر هنا رجل وسأل عنك ، تقول هذا إذا لم تعرف اسمه ولا شيئاً يتعلق به ، فالقصد هنا إلى فرد ما.

(١) سورة القصص ٢٠.

٢–أن يقصد بالحكم إلى نوع خاص من أنواع الجنس ، كما في قوله تعالى:﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[١] تنكر المسند إليه وهو (غشاوة) لأن القصد فيه إلى نوع خاص من أنواع الأغشية غير ما يتعارفه الناس وهو غطاء التعامي عن الحق والإعراض عن آيات الله.

ويذكر السكاكي أن التنكير في الآية للتعظيم ، أي غشاوة عظيمة تحجب أبصارهم بالكلية وتحول بينها وبين الإدراك ، لأن المقصود بيان بعد حالهم عن الإدراك والتعظيم أدل عليه وأوفى بتأديته ، ومن التنكير للنوعية قول الشاعر :

لكل داء دواء يستطب به ... إلا الحماقة أعيت من يداويها

التنكير في البيت للنوعية ، إذ ليس المراد مطلق دواء وإنما الغرض نوع خاص منه وهو الملائم للداء، أي لكل داء نوع خاص من أنواع الأدوية ما عدا الحماقة.

٣–أن يقصد إفادة تعظيم المسند إليه أو تحقيره وأنه بلغ من ارتفاع الشأن أو الانحطاط مبلغا لا يمكن أن يعرف ، كقول ابن أبي السمط :

ولله مني جانب لا أضيعه ... وللهو مني والخلاعة جانب

يقول : إن الجانب الأكبر من تفكيره وعمله مبذول في طاعة الله وابتغاء مرضاته أما اللهو والعبث فلهما الجانب الأدنى ، ولذا كان التنكير في جانب الأول للتعظيم وفي جانب الثاني للتهوين من شأن جانب اللهو لديه بدلالة أنه يمدح نفسه برجحان الخير فيه.

---

(١) سورة البقرة ٧.

ومـــن التنكير للتعظيم قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[1] يريد حـــياة عظـــيمة ، ويمكـــن أن يكون التنكير في الآية للنوعية ، لأن الحياة المترتبة على القصاص نوع خاص من أنواع الحياة ، فحياة القصاص إنما تظهـــر فيمن له عدو يهم بقتله فإذا ارتدع الجاني عن جنايته بسبب الخوف من القصاص اكتسب المجني عليه بقية حياته ، ومن التنكير للتحقير قولك: شعور بالكرامة عند الحر منجاة له من مواطن الذل ، أي شعور ضئيل.

٤-وينكر المسند إليه لإفادة التكثير أو التقليل ، مثال التكثير قولهم : إن له لإبلا وإن له لغنما ، يريدون الكثرة وأن له عددا وفيرا من الإبل والغنم، ومنــه قوله تعالى ﴿قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾[2] أي أجرا كثيرا ، فدل تنكير المسند إليه على إفادة التكثير في الأجر ، ومنه قول الشاعر :

فقــل لمـــن يدعـــي في العلم معرفة حفظــت شــيئا وغابت عنك أشياء

تنكير أشياء يفيد معنى الكثرة ، أي غابت عنك أشياء كثيرة جداً من دقائق العلم.

ومـــن الأمـــثلة الـــتي اجتمع فيها التكثير والتعظيم قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ﴾[3] أي رسل ذو عدد كثير ، أو ذو شأن عظـــيم وآيات عظام ، ولذا كان التكثير والتعظيم متغايرين مفهوما ، لأن التكثير يراعى فيه الكميات والمقادير ، والتعظيم يراعى فيه الحال والشأن كسمو القدر والشرف.

---

(١) سورة البقرة ١٧٩.

(٢) سورة الشعراء ٤٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨٤.

ومن أمثلة تنكير المسند إليه للتقليل قوله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾(١) أى وشئ قليل من رضوانه أكبر من ذلك كله ، لأن رضا الله سبب كل سعادة وفلاح للعبد لأن تلك أكبر في نفس العبد مما وراءه من النعم ، ومنه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم – عليه السلام – ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ﴾(٢) تنكير عذاب يفيد التقليل ، أى أنه يخاف عليه أن يصاب بشئ ما من عذاب الرحمن ، لأن أقل عذاب من الله يحقق معنى الإيذاء فكيف بالكثير منه؟ ومنه قوله تعالى:﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾(٣) أى ولئن مسهم أدنى شئ من العذاب لأذعنوا واعترفوا بظلمهم لأنفسهم.

وقد اجتمع التقليل في قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾(٤) أى قليل يسير ، أو ضئيل هزيل ، والفرق بينهما : أن التقليل يراعى فيه جهة العدد ، والتحقير يراعى فيه جهة الشأن والقدر.

وصف المسند إليه

قد يعمد الأديب أو البليغ إلى المجئ بالمسند إليه موصوفاً بوصف يساعد على إبراز المعنى ووضوحه؛ ليتمكن في ذهن السامع أو القارئ فضل تمكن ، ودواعى وصف المسند إليه كثير ومتنوعة منها :

(١) سورة التوبة ٧٢.

(٢) سورة مريم ٤٥.

(٣) سورة الأنبياء ٤٦.

(٤) سورة آل عمران ١٥٤.

١–أن يكون الوصف مبيناً للمسند إليه وكاشفاً عن معناه :

كقولك : الجسم الطويل العريض العميق يحتاج إلى فراغ يشغله ، فكل من الأوصاف الثلاثة وصف كاشف يبين الجسم بوجه ، والمجموع وصف كاشف بالغ مرتبة الحد ، إما لجعلها بمنزلة وصف واحد بمعنى الممتد في الجهات الثلاث ، وإما لجعل الوصف أعم من أن يكون واحداً أو متعدداً ، فالأوصاف الثلاثة (الطول والعرض والعمق) للمسند إليه (الجسم) ليست مجرد وصف للمسند إليه فحسب ، ولكنها في مجموعها وصف للكشف والبيان عن معنى المسند إليه.(١)

٢–أن يكون وصف المسند إليه مخصصاً له ، والمراد بالتخصيص : إزالة الاحتمال في المعارف ، وتقليل الاشتراك في النكرات كقولك : زيد التاجر عندنا ، فإن زيداً (المسند إليه) كان يحتمل التاجر وغيره ، فلما وصفته بصفة مميزة له وهي (التاجر) رفعت الاحتمال عن المسند إليه وأصبح معيناً بكونه التاجر ، هذا بالنسبة للمسند إليه المعرفة.

ومثال الوصف للمسند إليه مع كونه نكرة : رجل عالم عندنا ، فرجل مسند إليه نكرة ، و(عالم) صفة مميزة ومخصصة له ، وكان المسند إليه بحسب الوضع محتملاً لكل فرد من أفراد الرجال ، فلما ذكرت الوصف (عالم) قللت ذلك الاشتراك والاحتمال ، وخصصته بفرد من الأفراد المتصفة بالعلم.(٢)

---

(١) ينظر : المطول ص ٢٣٨ ، والأطول جـ ١ ص ٣٣٥ ، ٣٣٦.
(٢) ينظر : المطول ص ٢٣٩.

٣–أن يكون وصف المسند إليه مفيداً للمدح أو للذم أو للترحم.

فمثال الوصف للمدح : جاءني زيد العالم.

ومـــثال الوصف للذم : جاءني زيد الفاسق أو الجاهل ومثال الوصف المفيد للترحم : جاءني زيدٌ الفقير.

٤–وقـد يكـون الوصــف تأكيداً للمسند إليه ، وذلك إذا كان الموصوف متضمناً لمعنى ذلك الوصف ، وذلك كما في قولنا :

أمس الدابر كان يوماً عظيماً.

٥–أن يكون الوصف بياناً للمقصود من المسند إليه وتفسيره ، كما في قوله تعـــالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1] فلفظ كل من (دابة) و (طائر) مسند إليه ، والأول وصف بقولـه (فـي الأرض) والثاني بقوله (يطير بجناحيه) والوصف في كل منهما مـن خواص الجنس – لبيان أن القصد فيهما إلى الجنس دون الفرد، وبهذا الاعتبار أفاد الوصف في كل زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل : وما من دابة في جميع الأرضين السبع ، ولا طائر يطير في جو السـماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها ، غـير مهملـة أمورها ، فزيادة كلمة (من) أفادت استغراق جميع أفراد الجنس ، وكأن المعنى : ما من واحد من أفراد هذين الجنسين بعمومهما سواكم إلا أمم أمثالكم.[2]

---

(١) سورة الأنعام من الآية ٣٨.

(٢) ينظر المطول ص ٢٣٩ ، والأطول ص ٣٣٨ : ٣٤١.

توكيد المسند إليه[1]

وحيناً يأتي المتكلم بالمسند إليه مؤكداً لأغراض بلاغية منها :

١-تقريـر المسند إليه ، وتحقيق مفهومه ومدلوله في ذهن السامع ، أعني جعله مستقراً ثابتاً بحيث لا يظن السامع بالمسند إليه غيره ، وذلك مثل أن يقـال : جـاءني زيد زيد ، فالمسند إليه (زيد) كرر مرتين للتأكيد حرصاً من المتكلم على وصول المعنى المراد من المسند إليه بدقة إلى ذهـن السامع ، باعتبار أن المتكلم كان قد خاف أن يكون السامع غفل عن سماعه أولاً ، فكرره ثانياً ليسمعه المخاطب ، ويحمله على معناه، إذا كان انشغل بشئ عن سماع اللفظ الأول ، أو كان قد سمع ، لكن لم يلتفـت إلـى معناه لانشغاله عن فهمه ، فجئ بالمسند إليه مرة أخرى على سبيل التقرير.

٢-ويؤتى بالمسند إليه مؤكداً كذلك ؛ لدفع توهم السهو نحو : جاءني زيد زيـد ، وذلـك إذا ظن المتكلم غفلة السامع عن سماع لفظ المسند إليه (علـى نحو ما ذكر في الغرض السابق) ، أو ظن المتكلم أن السامع جعـل الجـائي غـير زيد، أو توهم أن الجائي عمرو – مثلاً – وأن المتكلم ذكر زيداً على سبيل السهو.

---

(١) يـنظر المطـول ص ٢٤٠ : ٢٤٢ ، والأطـول جـ ١ ص ٣٤٤ : ٣٥٠ ، وخلاصة المعاني لابن حسن المفتي تحقيق د/ عبد القادر حسين ص ١٦٩ : ١٧٠.

٣-وقد يؤتى بالمسند إليه مؤكداً لدفع توهم التجوز – أي التكلم بالمجاز – نحـو قولـنا : جـاء السلطان نفسه ، لئلا يتوهم أن إسناد المجيء إلى السلطان مجاز والجائي بعض عساكره.

٤-ويـأتي المـتكلم بالمسند إليه مؤكداً لدفع توهم السامع عدم الشمول ، وذلـك مـا في قوله تعالى : ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[1] فـ (الملائكة) مسند إليه وأكد بقوله (كلهم أجمعون) لئلا يتوهم أن المراد : هـم بعـض الملائكة لا كلهم ولا جميعهم ، فالتأكيد أفاد شمول الحكم بالسجود للملائكة كلهم وجميعهم ، لا بعضهم ، ومن ذلك أيضاً قولنا : جـاء الطـلاب كلهم أجمعون ، لئلا يتوهم أن بعضهم لم يجيء إلا أن المتكلم لم يعتد بهم.

٥-أو يؤتى بالمسند إليه مؤكداً لجعل الفعل الواقع من البعض كالواقع من الكـل بـناءً علـى أنهم في حكم شخص واحد ، وذلك واقع في كلام العرب –كما يقال : بنو فلان قتلوا زيداً ، وإن كان القاتل واحداً منهم، إلا أنـه أسند المجيء إلى الكل ، تأكيداً على أن الفعل الواقع من أحدهم أو بعضهم كالواقع منهم كلهم أو جميعهم.

(١) سورة الحجر ٣٠.

بيان المسند إليه بالعطف[1]

والمراد بذلك (العنوان) تعقيب المسند إليه بعطف البيان ، وذلك لأغراض بلاغية شتى منها :

١-قصد إيضاحه باسم مختص به أي بالمسند إليه مثل : (قدم صديقك خالد) فالمسند إليه (صديقك) جاء معقبا بعطف البيان (خالد) قصداً لإيضاح من القادم ؛ لجواز أن يكون للمخاطب أكثر من صديق واحد ، ولا يلزم كون المذكور الثاني أوضح من الأول ؛ لجواز أن يحصل الإيضاح من اجتماعهما.

٢-وقد يأتي بالمسند إليه معقباً بالعطف المذكور لإفادة المدح ، وذلك كما في قوله تعالى : ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾[2] ، فالبيت الحرام عطف بيان جئ به للمدح لا للإيضاح ؛ لأن الكعبة في غاية الإيضاح لكل الناس ، إذ لا خفاء فيها ، فلا تحتاج إلى بيان ، ويكون القصد بالبيت الحرام الذي هو عطف بيان للكعبة لمجرد المدح ، وإنما كان كذلك ؛ لأن (البيت الحرام) فيه دلالة على أن الكعبة لا بد وأن تكون موصوفة بالحرمة ، وبتعظيم الاحترام ، والامتناع من كل امتهان وانتهاك ، ولا شبهة في ذلك بوجه من الوجوه.

---

(١) ينظر المطول ص ٢٤٣ وما بعدها ، والأطول جـ ١ ص ٣٥٠ : ٣٥٢ وخلاصة المعاني ص ١٧٠ ، ١٧١.

(٢) سورة المائدة ٩٧.

الإبدال من المسند إليه[1]

وأمـــا الإبدال من المسند إليه فيكون لزيادة التقرير ، ولتثبيت الحكم والمســـند إليه في ذهن السامع ، ومثال ذلك في بدل المطابقة : جاء أخوك زيـــد ، فــــ (زيد) بدل من قوله (أخوك) الذي هو مسند إليه ، وكان من الممكـــن أن يقال (جاء أخوك) دون ذكر زيد إلا أنه بمجيء البدل (زيد) زاد التقرير وثبت الحكم (المجيء للأخ) في ذهن السامع ، وهذا مثال لبدل الكل، وهو الذي يكون ذاته عين ذات المبدل منه ، وإن كان مفهومها متغايرين، أي فـــإن (أخوك) مثلاً في قولنا : (زيد أخوك) يفهم منه الأخوة ، وزيد لا يفهم منه ذلك.

والتقرير يحصل بالتكرير – وذلك باعتبار أن المقصود بلفظ (أخوك) هو (زيد) – حيث في المثال المذكور تكرر المعنى الواحد بلفظين مختلفين، وهمـــا لفظ المبدل منه ولفظ البدل ، فما يصدق عليه لفظ (أخوك) هو نفس ما يصدق عليه لفظ (زيد) ؛ لأن الأخ المقصود هو زيد.

ومثال الإبدال من المسند إليه في بدل البعض ، وهو الذي يكون ذاته بعضـــاً مـــن ذوات المبدل منه : جاء القوم أكثرهم ، فالمبدل منه (القوم) مشتمل على البدل (أكثرهم) إجمالاً ؛ لأن مجيء القوم يستدعي مجيء الأكثر، و الأكثر بعض القوم.

---

(١) ينظر المطول ص ٢٤٥ : ٢٤٧ ، وخلاصة المعاني ص ١٧١ ، ١٧٣.

ومثال الإبدال من المسند إليه في بدل الاشتمال ، وهو الذى لا يكون عين المبدل منه ، ولا بعضه ، ويكون المبدل منه مشتملاً عليه (أى ما اشتمل المبدل منه فيه على البدل) لا كاشتمال الظرف على المظروف، بل من حيث يكون مشعراً به أو دالاً عليه إجمالاً ، ومقتضياً له بوجه ما ، بحيث تبقى النفس عند ذكر المبدل منه متشوقة إلى ذكره منتظرة له ، فيجئ هو مبيناً وملخصاً لما أجمل أولاً.

وأقول والمثال لذلك النوع من البدل : (سلب زيد عقله أو ثوبه) فلفظ (عقله) و (ثوبه) ليس هو عين المبدل منه ، ولا بعضه ، بل المبدل منه (زيد) هو الذى اشتمل على العقل والثوب ، والمسلوب ليس هو نفس زيد ، ولكن شيئاً مما اشتمل عليه وهو العقل أو الثوب ، فذكر المسند إليه (زيد) أولاً ثم ذكر البدل (عقله أو ثوبه) ثانياً على سبيل التفصيل بعد الإجمال ، أو التوضيح بعد الإبهام.

العطف على المسند إليه(١)

ويؤتى بالمسند إليه معطوفاً عليه لأغراض بلاغية منها :

١- تفصيل المسند إليه مع الاختصار ، وذلك إذا كان العطف بالواو مثل : جاءني زيد وعمرو ، فإن في هذا المثال تفصيلاً للفاعل على أنه زيد وعمرو من غير دلالة على تفصيل الفعل وهو المجئ.

---

(١) ينظر المطول ص ٢٤٧ : ٢٥٠ وخلاصة المعاني ص ١٧٣ ، ١٧٥.

ولــو قيل : جاء زيد وجاء عمرو ، لكان فيه تفصيل للفاعل أيضاً ، ولكنه بدون اختصار ؛ لأنه والحالة هذه يكون من باب عطف الجمل الذي طــريقه الــتطويل ، ولــيس مــن بــاب العطف على المسند إليه المحقق للاختصار ، حيــث إن فــي مثل هذا القول – الأخير – تفصيلاً للمسند (الفعل) أيضاً ، ولذلك جاء تقييد تفصيل المسند إليه بقولنا (مع الاختصار).

٢-أن يعطــف علــى المسند إليه أيضاً إذا أراد المتكلم تفصيل المسند مع الاختصار إذا كان العطف بغير الواو ، باعتبار أن الفعل يكون قد حصل مــن أحد المذكورين أولاً ، وعن الآخر بعده متراخياً أو غير متراخ ، وذلك مثل وقلنا: جاءني زيد فعمرو أوثم عمرو ، أو جاءني القوم حتى خــالد . فهذه الثلاثة تشترك في تفصيل المسند (الفعل جاءني) ، وتختلف من جهة أن الفاء تدل على أن ملابسة الفعل التابع بعد ملابسته للمتبوع بلا مهلة ، و (ثم) كذلك مع مهلة ، و(حتى) مثل (ثم) ، إلا أن فيه دلالة على أن ما قبلها مما يقتضي شيئاً فشيئاً إلى أن يبلغ ما بعدها.

فالغــرض من العطف بالفاء هنا هو : إثبات مجيء عمرو بعد مجيء زيد بلا مهلة ، حتى كأنه معلوم أن الجائي زيد وعمرو ، والشك إنما وقع في الترتيب والتعقيب ، فيكون العطف لإفادة تفصيل المسند ، وكذلك الشأن فــي (ثــم) ، و (حتى) إلا أن (ثم) أفادت مجيء عمرو بعد مجيء زيد بمهلة وتراخ ، و (حتى) أشارت إلى أن مجيء القوم لم يكن جملة واحدة ، ولكنه كــان على التراخي باعتبار أن مجيء القوم كان يقتضي شيئاً فشيئاً ، وكان بعضهم يأتي إثر البعض الآخر ، إلى أن انتهى مجيئهم.

٣-أن يكون العطف على المسند إليه لرد السامع عن الخطأ في الحكم إلى الصـــواب ، وذلك كما في قولنا : جاء زيد لا عمرو ، وذلك لمن اعتقد أن عمـــراً هو الذي جاء دون زيد ، أو اعتقد أنهما جاءا معاً أو جميعاً، وعلـــيه يكـــون المـــثال من باب قصر القلب إذا كان رداً على الاعتقاد الأول، ومـــن باب قصر الإفراد، إذا كان رداً على الاعتقاد الثاني ، مع ملاحظة أن حرف العطف المستخدم هنا هو الحرف (لا) المفيد لنفي ما وجب في الأول ، وفي هذا الاستخدام رد إلى الصواب ببيان انفراد زيد بالمجيء دون عمرو.

ومن هذا القبيل أيضاً قولنا : ما جاء زيد لكن عمرو وذلك رداً على من زعم أن الجائي هو زيد لا عمر ، فتكون قد رددته إلى صوابه ، ولكن باســـتخدام حرف العطف (لكن) ، وفرق بين (لا ، ولكن) في الاستعمال ، أن (لا) لـــنفي الحكم عن التابع ، بعد إيجابه للمتبوع ، أما (لكن) فلإيجاب الحكم للتابع بعد نفيه عن المتبوع.

٤-أن يكون العطف على المسند إليه لصرف الحكم عن المحكوم عليه إلى محكـــوم عليه آخر ، وفي هذه الحالة يكون حرف العطف المستخدم هو (بل) ، والمعطوف عليه إما أن يكون :

أ-**مثبـــتاً كقولنا** : جاء زيد بل عمرو ، ففي هذا المثال أفادت (بل) صرف الحكم (المجيء) عن زيد (المعطوف عليه) وأثبتته للمعطوف (عمرو).

ب-منفياً كقولنا : ما جاء زيد بل عمرو ، ويقال هنا عن (بل) مثل ما قيل في المثال الأول.

ففي كلا المثالين صرف المجئ إلى المعطوف ، وجعل حكم المعطوف عليه كالمسكوت عنه بالنسبة إلى المعطوف ، فإن (بل) للإضراب عن المتبوع ، وصرف الحكم إلى التابع ، ومعنى الإضراب أن يجعل المتبوع في حكم المسكوت عنه ، يحتمل أن يلابسه الحكم وألا يلابسه ، أي لا يثبت له الحكم ولا ينفى عنه ، بل يحتمل مجئ زيد وعدم مجيئه ، لا أن ينفى عنه الحكم قطعاً خلافاً لبعضهم الذي يقول : بنفي الحكم عن زيد قطعاً.

٥-أن يكون القصد من العطف على المسند إليه الإفادة بأن المتكلم شاك في الحكم ، أو يكون القصد هو إيقاع السامع في الشك ، أو إبهام الحكم على السامع ، أو أن يكون العطف على المسند إليه قصداً إلى التخيير بين أمرين أو إباحة الجمع بينهما ، وفي كل هذه الحالات يكون حرف العطف المستخدم هو (أو) والأمثلة على الترتيب هي :

أ-جاء زيد أو عمرو ، وذلك إذا كان المتكلم قد خالجه الشك ولا يدري من أيهما صدر المجئ.

ب-والمثال السابق نفسه يصلح لأن يكون مثالاً لغرض تشكيك السامع أو إيقاعه في الشك ، حتى لا يعلم على وجه اليقين من أيها (زيد أو عمر) صدر المجئ ، وذلك لغرض ما في نفس المتكلم.

جـ- ومثال العطف على المسند إليه قصداً إلى إبهام الحكم على السامع أو السامعين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]

والمعنى : إن أحد الفريقين (نحن أو أنتم) لعلى أحد الأمرين من الهدى أو الضلال ، فإما أن يكون المهتدون إيانا والضالون إياكم ، وإما العكس ، فالله يعلم الصادق منا ومنكم ، وإن أحد الفريقين لكاذب ، ففيه دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ، ومن هو في الضلال المبين ، وقد أبهم الأمر على السامعين تفادياً لنسبتهم إلى الضلال؛ حتى لا يشتد عنادهم ، ويتيسر لهم سبل النظر إلى ما هم فيه خطؤهم، فيقلعون عن عنادهم ، ويدخلون في الإسلام.[2]

د- ومثال كل من التخيير والإباحة قولنا : ليدخل الدار زيد أو عمرو ، فإن كان المراد من الكلام هو الأمر بدخول أحدهما – بحسب – لا على التعيين ، فالكلام مبني على التخيير ، وإن كان القصد هو الأمر بدخول أحدهما أو كليهما كان الكلام مبنياً على الإباحة ، وذلك على اعتبار أن الإباحة يجوز فيها الجمع بين التابع والمتبوع بخلاف التخيير.

---

(١) سورة سبأ ٢٤.

(٢) ينظر الكشاف جـ ٣ ص ٥٦٤ ، ومن أسرار النظم العربي جـ١ ص ١٨٣.

تعقيب المسند إليه بضمير الفصل(١)

ويؤتى بالمسند إليه معقباً بضمير الفصل لأغراض بلاغية منها :

١-تخصيص المسند إليه بالمسند ، أو بعبارة أخرى قصر المسند على المسند إليه ، وذلك مثل : زيد هو القائم ، فضمير الفصل (هو) يفيد أن المسند (القائم) مقصور على المسند إليه (زيد) لا تجاوزه إلى غيره كعمرو مثلاً ، ولذلك إذا أريد التأكيد والمبالغة قيل : لا عمرو.

ومنه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾(٢)

والمعنى : لا يقبل التوبة من العباد إلا الله عز وجل.

فقبول التوبة مقصور عليه – جل شأنه ، لا يتعداه إلى غيره.

٢-وقد يكون تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لإفادة مجرد التأكيد ، وذلك إذا كان التخصيص حاصلاً بدونه، بأن يكون في الكلام ما يفيد قصر المسند على المسند إليه نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾(٣) ، والمعنى : لا رازق إلا هو سبحانه ، فالقصر حاصل بتعريف الطرفين (إن الله – الرزاق) وتوسيط ضمير الفصل بينهما – أي بين المسند إليه (لفظ الجلالة) والمسند (الرزاق) الواقع خبراً لـ (إن) – لمجرد التأكيد.

---

(١) سورة التوبة ١٠٤.

(٢) ينظر المطول ص ٢٥٠ : ٢٥٢ ، وخلاصة المعاني ص ١٧٥.

(٣) سورة الذاريات ٥٨.

ويكون أيضاً تعقيب المسند إليه بضمير الفصل لمجرد التأكيد إذا كان فـي الكلام ما يفيد قصر المسند إليه على المسند نحو : الكرم هو التقوى ، والحسب هو المال ، أي لا كرم إلا التقوى ، ولا حسب إلا المال.

دواعي تقديم المسند إليه

يمـتدح الإمام عبد القاهر باب التقديم بقوله "هو باب كثير الفوائد جم المحاسـن ، واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة ، ويفضـي بـك إلى لطيفة ، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ، ويلطف لديـك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شئ على شئ ، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان"[1] ثم عرض للتقديم والتأخير بأسلوب آخر ستتعرف عليه في مرحلة تالية إن شاء الله تعالى.

هذا ويقدم المسند إليه في الكلام لإفادة الاهتمام بشأنه ، ولهذا الاهتمام دواع من أهمها :

١-كونه الأصل في بناء الجملة لأنه محكوم عليه ولا مقتضى للعدول عن تقديمه، كقولك : القطار قادم ، محمد ناجح.

٢-يقدم المسند إليه ليتمكن الخبر في ذهن السامع لأن في المبتدأ تشويقا إليه بأن يكون متضمنا ما يوجب الدهشة ويثير الغرابة ، كقول الشاعر :

والـذي حـارت الـبرية فـيه ... حـيوان مسـتحدث مـن جمـاد

---

(١) دلائل الإعجاز ص ١٠٦.

قـدم المسـند إليه ؛ لأن فيه تشويقاً إلى ذكر الخبر فقد اتصل به ما يدعـو إلى العجب في قوله : حارت البرية فيه ، وهذا مما يثير في النفس عوامل التلهف والتشوق إلى معرفة من أوقع الخليقة في الحيرة؟ فإذا علمته بعد هذا التلهف تمكن في النفس خير تمكن.

ومن ذلك قولك : الذي ملأ الأرض نوراً بدعوته محمد ﷺ.

٣-ويقدم المسند إليه لتعجيل المسرة أو المساءة لكونه صالحا للتفاؤل به أو التطير منه كقولنا في التفاؤل : الجنة مأوى المتقين ، وقوله تعالى ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[١] ، وخـير الله في دارك ، وفي التطير قول الله سبحانه ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢] وقولك اللص في بيتك.

٤-ويقـدم المسـند إليه للإشارة إلى إظهار تعظيمه أو تحقيره إذا كان في اللفظ ما يوحي بذلك كقوله تعالى – في التعظيم – ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾[٣] في تقديم المسند إليه – السابقون – دلالـة علـى الاهـتمام بهم وإظهار تعظيمهم لما اتصفوا به من صالح الأعمال ، ومنه قولك: أبو المجد أستاذنا ، وأبو المعالي صديقنا ، ومثال التحقـير : قولـه تعالى ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ

---

(١) سورة مريم ٦٣.
(٢) سورة الحج ٧٢.
(٣) سورة الواقعة ٩ – ١٢.

جَلْدَةٍ﴾(١) قدم المسند إليه للتشهير بالزانية وتحقير شأنهما والتنديد بهما ، ومنه قولك : أبو جهل مسافر.

٥-ويقدم المسند إليه لإيهام السامع أنه لا يزول عن الخاطر وذلك إما لأنه مما يستلذ بذكره كقول جميل:

بثينة ما فيها إذا ما تبصرت … معاب ولا فيها إذا نسبت أشب

قدم المسند إليه (بثينة) ليوهم أنها لا تزول عن خاطره مع ما في ذكر اسمها من لذة له ، ومثله قولك : فاطمة حبيبتي ، زينب زارتني.

وإما لشدة الحاجة إليه كقول الفقير : الدرهم يسعدني ، وقول الجائع : الرغيف يشبعني وقولك : النصر غايتنا ، وإما لأنه مما يتيمن بذكره مثل : الله ولينا ، ومحمد ﷺ نبينا.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.(٢)

٦-ومن أبرز دواعي تقديم المسند إليه إفادة تخصيص المسند إليه بالمسند ، كقولك أنا سعيت في حاجتك ، محمد الناجح ، علي الراسب ، ما شوقي قال هذا الشعر ، قدم المسند إليه في الأمثلة المذكورة لإفادة قصر المسند عليه بحيث لا يتجاوزه إلى غيره ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾.(٣)

---

(١) سورة النور ٢.

(٢) سورة البقرة ٢٥٧.

(٣) سورة النور ٢.

تأخير المسند إليه

ويأتي المسند إليه مؤخراً إذا كان المقام يقتضي تقديم المسند لأهميته، وهــذا يعني أن أغراض تقديم المسند هي نفس أغراض تأخير المسند إليه، ويتضح لنا ذلك أثناء الحديث عن أغراض تقديم المسند.

صور إخراج المسند إليه على خلاف مقتضى الظاهر

قــد يستدعي ظاهر الحال – وهو الأمر الثابت في الواقع – صورة خاصــة ليؤتى بالمسند إليه وفقا لها فيعكس الأمر ويؤتى به على خلاف مقتضى ظاهر الحال لأمر اقتضى ذلك فاعتبره المتكلم لسبب من الأسباب حمله على ذلك ، وحينئذ يقال أن المسند إليه قد خرج على خلاف مقتضى ظهر الحال ، ويكون ذلك على صور منها :

وضع المضمر في موضع المظهر :

يوضع المضمر في موضع المظهر خلافا لمقتضى الظاهر ليتمكن ما بعده في ذهن السامع ويكون ذلك في موضعين :

أ-في باب نعم وبئس ، إذا جعل المخصوص خبرا لمبتدأ محذوف كقولك : نعــم بطــلا محمد ، وبئس رجلا زيد، مكان نعم البطل وبئس الرجل ، والفــاعل أي المســند إليه ضمير مستتر تقديره هو ، وذلك لأن ضمير الغيبة لا بد أن يتقدمه مرجع أو تدل عليه قرينة ، وليس هنا مرجع ولا قريــنة ، فظاهــر الحال أن يؤتى بالمسند إليه اسماً ظاهراً فيقال : نعم الــبطل خــالد ، لكنه عدل عن ذلك إلى الإضمار ليحصل التفسير بعد

الإبهـــام فيتمكـــن فى الذهن ، وهذا مناسب لمقام المدح أو الذم ، وهذا لضـــمير مفســـر بـــنكرة نعـــم جنس العقلاء فيحصل الإبهام فإذا ذكر المخصوص بالمدح أو الذم جاء البيان بعد ذلك الإبهام.

قلـــنا أن هذا إنما يكون إذا جعل المخصوص خبرًا لمبتدأ محذوف ، أما إذا جعل المخصوص مبتدأ ونعم بطلا خبره فليس من هذا الباب ، لأن الضمير حينئذ يكون له مرجع متقدم رتبة ، وإن تأخر لفظا وهو المبتدأ.

ضـــمير الشـــأن أو القصـــة ، كقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[١] وقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[٢] ، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾[٣] المسند إليه في الأمثلة ضمير الغائب أو الغائبة ولم يتقدم لهما مرجع ولا قرينة فكان مقتضـــى ظاهـــر الحال أن يجئ المسند إليه اسما ظاهرا فيقال مثلا: الشـــأن الله أحـــد ، فعدل عن الإظهار إلى الإضمار لزيادة التمكن فى ذهـــن السامع لأنه إذا لم يفهم من الضمير فى ذهن السامع ، وفى هذا مـــتعة العلم لدى السامع ومتعة دفع ألم الترقب والانتظار ، وإذا كان الضمير مؤنثاً سمى ضمير القصة ، كقولك : هى عائشة أم المؤمنين.

(١) سورة المؤمنون ١١٧.

(٢) سورة النور ٢.

(٣) سورة النور ٢.

وضع المظهر في موضع المضمر :

ويكون ذلك لزيادة التمكن في الذهن أيضاً ، بيان ذلك أنه إذا تقدم موضـــع الضمير أو دلت عليه قرينة ما كان المقام للإضمار كما سبق إلا أنـــه قـــد يوضع المظهر في موضع المضمر إذا كان المسند إليه (المظهر) اسم إشارة أو علماً أو معرفاً بأل أو بالإضافة ولكل حالة من ذلك دواع نذكرها على النحو التالي :

أ-فإن كان ذلك المظهر اسم إشارة كان إظهاره للأغراض الآتية :

١-كمـــال العـــناية بتمييزه أكمل تمييز لاختصاصه بحكم غريب كقول ابن الراوندي :

كـم عـــاقل عـــاقل أعيـت مذاهبه وجـــاهل جـــاهل تلقـــاه مـــرزوقا

هـــذا الـــذي تـــرك الأوهـــام حائرة وصـــير العـــالم الـــنحرير زنديقا

فاسم الإشارة يشير إلى حكم سابق غير محسوس وهو حرمان العاقل ورزق الجـــاهل فكـــان القياس الإضمار فيقال : هو فعدل إلى إسم الإشارة لكمال تمييزه أكمل تمييز فأبرزه في معرض المحسوس ، والحكم الغريب : كون العاقل محروما والجاهل مرزوقاً.

ومنه قول الشاعر :

كـــم عـــاقل لا زال في عسر وجـــاهل جـــاهل لا زال فـــي يسر

تحـــير الـــناس فـــي هذا فقلت لهم هـــذا الـــذي أوجب الإيمان بالقدر

أظهر المسند إليه – اسم الإشارة – لاختصاصه بحكم غريب بديع هو وجوب الإيمان بالقدر.

٢–التهكم بالسامع والسخرية من غباوته كما إذا كان فاقد البصر وخاطبه إنسان بقوله : هذا متاعك ، أو هذه حقيبتك وهو يعلم أنه لا يرى المشار إليه لكنه يقصد السخرية منه ، ومن ذلك قول الفرزدق يهجو جريرا:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

٣–النداء على كمال بلادة السامع وأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾[1] مقتضى الظاهر أن يقال: هي النار ، أفسحر هو ، لكن عدل عن الإضمار إلى اسم الإشارة للدلالة على كمال بلادة الكافر وأنه لا يدرك إلا المحسوس المشار إليه.

٤–النداء على كمال فطنة السامع وأن المعقول عنده كالمحسوس في الوضوح والظهور ومن ذلك قول الأستاذ بعد تقرير مسألة دقيقة : وهذا واضح عند الذكي.

٥–وقد يوضع اسم الإشارة في موضع المضمر لتعظيم المشار إليه أو تحقيره بالقرب أو بالبعد ونحو ذلك ، كقولك : هذا كتاب الله ، وهذا عدونا وقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[2] وكقولك : ذلك العدو لا خير فيه.

(١) سورة الطور ١٣ – ١٥.
(٢) سورة البقرة ٢.

ب-وإن كـــان المظهـــر غير اسم الإشارة فيكون وضعه موضع المضمر للأغراض الآتية :

١-زيـــادة التمكـــن فـــي ذهن السامع، كقوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾[1] لم يقل هو الصمد لأن الاسم الظاهر لما وقع في غير موقعه كان كحدوث شيء غير مترقب ، وهذا من شأنه أن يستقر في النفس على خير وجه ، ومنه قوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2] لـــم يقل أنه قوي عزيز لزيادة تمكن المعنى في ذهن السامع ، ومنه قول دريد بن الصمة:

أمـــرتهمـــو أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصح إلا ضحى الغد

ومـــا أنـــا إلا من غزية إن غوت غويـــت وإن ترشـــد غزية أرشد

فوضع غزية في الشطر الثاني – وهي اسم ظاهر – مكان المضمر لزيادة تقرير المعنى وتمكينه في نفس السامع.

٢-إدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة أو تقوية داعي المأمور أو المـــنهي عنه مثل: أمير المؤمنين يأمر بكذا ، بدل قول الخليفة : أنا آمـــر بكذا، وعلى هذا قوله تعالى ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[3] بدل : إنه يحب المتوكلين.

(١) سورة الصمد ١ ، ٢.

(٢) سورة المجادلة ٢١.

(٣) سورة آل عمران ١٥٩.

٣-الاستعطاف كقولك أمام الحاكم : أيأذن لي مولاى أن أتكلم؟ مكان أتأذن لي؟ ومنه قول الشاعر :

إلهـــي عـــبدك العاصـــي أتاكـــا مقـــرا بـــالذنوب وقـــد دعاكـــا

لـــم يقل : أتيتك ، لأن لفظ عبدك يفيد معنى الضراعة والخضوع لله والاستعطاف.

٤-التصـــريح بعلـــة الحكم كقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾(١) مكان : واستغفرت لهم ، لأن شفاعة الرسول ﷺ ليست بالأمر الهين ويرجوها كل مسلم فلذلك وضع اسمه عليه ﷺ ظاهرا مكان إضماره.

٥-ربمـــا يكـــون وضع المظهر في موضع المضمر لإصلاح الكلام ، بأن يقصـــد التوصـــل بالظاهر إلى الوصف كما في قوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾(٢) عدل عن الإضمار ولم يقل : فآمنوا بالله وبي ، إلى الإظهار ليتأتى إجراء وصف النبي وما بعده عليه ، لأنه الضمير لا يوصف ، وفيه بعد عن التعصب لنفســـه فكأنـــه يقول : فآمنوا بالرسول الذي هذه أوصافه سواء كان هذا الرسول أنا أو واحدا غيري على هذه الأوصاف.

---

(١) سورة النساء ٦٤.

(٢) سورة الأعراف ١٥٨.

ورود ضمير الخطاب على خلاف مقتضى الظاهر

قد يؤتى بضمير الخطاب على خلاف مقتضى الظاهر ، وذلك لأن المعروف أن أصل الخطاب أن يكون لمعين فيعدل عن ذلك ويوجه الخطاب إلى كل من يتأتى خطابه دون أن يقصد بالخطاب إنسانا بعينه كقول الشاعر :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه؟

وقوله :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فضمير الخطاب في البيتين غير مقصود به مخاطبا معينا كما هو الأصل في الخطاب وإنما أريد به مطلق مخاطب لاشتهار الأمر وظهوره لكل من يسمعه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[1] الخطاب في الآية لكل من يتأتى مخاطبته لبيان أن حالة المجرمين من الإذلال قد تناهت في الافتضاح إلى درجة يمتنع خفاؤها ، فلا تختص الرؤية حينئذ براء دون آخر ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[2] ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾[3] فالخطاب لا يقصد به معينا لاشتهار هذا الأمر ووضوحه وكذا قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.[4]

(١) سورة السجدة ١٢.
(٢) سورة الأنعام ٢٧.
(٣) سورة الأنعام ٣٠.
(٤) سورة سبأ ٥١.

الالتفـات

مـن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر نقل كل واحد مـن الـمتكلم والخطـاب والغيبة إلى الآخر ، ويسمي البلاغيون هذا النقل التفاتا، وهو مأخوذ من التفات الإنسان من يمينه إلى يساره وبالعكس.

وقـد اختلف البلاغيون في تعريفه ، فترى الجمهور يعرفونه تعريفا والسكاكي يعرفه تعريفا آخر ، وسنذكر كلاً من التعريفين دون التعرض للتفاصيل.

تعـريف السـكاكي للالـتفات : بعد أن ذكر في المفتاح صورا من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر قال : "هذا غير مختص بالمسند إليه ولا بهذا القدر، بل التكلم والخطاب والغيبة مطلقا ينقل كل واحد منها إلى الآخر ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء المعاني".(١)

ويفهـم مـن كلام السكاكي أنه يقصد بالالتفات : التعبير عن معنى بطريق مخالف لمقتضى الظاهر من الطرق الثلاثة – التكلم أو الخطاب أو الغيـبة – سـواء سـبقه تعبير آخر بطريق من هذه الطرق أو لم يسبقه ، بمعنى أن كل تعبير عن واحد من الثلاثة بغيره يعد التفاتا.

(١) مفتاح العلوم ص ٩٥.

تعريف الجمهور :

هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة – التكلم أو الخطاب أو الغيبة – بعد التعبير عنه بطريق آخر منها على أن يكون المراد من الطريقين واحداً.(١)

فكل التفات عند الجمهور التفات عند السكاكي بلا عكس ؛ لأنه يريد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره ، ولذا كان من صور الالتفات عنده قول ربيعة بن مقروم :

بانت سعاد فأمسى القلب معمودا ... وأخلفتك ابنة الحر المواعيدا

فالتفت في قوله : أخلفتك وكان مقتضى الظاهر أن يقول : وأخلفتني ، فهذا مع أنه لم يسبقه طريق آخر غيره يعده السكاكي التفاتا ، ومن الالتفات عنده أيضاً قول الشاعر :

تذكرت – والذكرى تهيجك – زينبا ... وأصبح باقي وصلها قد تقضبا

وحل بفلج فالأباتر أهلنا ... وشطت فحلت غمرة فمثقبا

فقد عبر بتاء الخطاب في (تذكرت) ومقتضى الظاهر أن يكون بتاء المتكلم أي بضم التاء وهذا من الالتفات عند السكاكي لأنه لم يتقدمه طريق آخر من الطرق الثلاثة مخالفة له ، وفي البيت الثاني التفات عند كل من الجمهور والسكاكي ، فقد التفت الشاعر من الخطاب في تذكرت إلى التكلم في أهلنا ، ويسمي الجمهور الالتفات الأول عند السكاكي تجريداً.(٢)

---

(١) المطول ص ١٣٠.
(٢) ومعناه : أن ينتزع من أمر ذي صفة أمرا آخر له نفس الصفة باعتبار بلوغه الكمال فيها المطول ص ٤٣٢.

فائدة الالتفات :

يجيء الالتفات لمقتضيات ومناسبات تظهر بالتأمل الدقيق لمواقعه وذلك تفننا في الحديث وتلوينا للخطاب حتى لا يمل السامع من التزام حالة واحدة ، وتنشيطا له وحملا له على زيادة الإصغاء ، لأن نقل الكلام من أسلوب لأسلوب يزيد من جذب انتباه السامع ، هذه فائدته العامة ولبعض مواقعه لطائف يدركها الذوق السليم ومنها قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ﴾[1] لم يقل : واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريق الالتفات تفخيما لشأن الرسول ﷺ وتعظيما لاستغفاره وتنبيها على عظمة شفاعة الرسول عند الله سبحانه.[2]

كذلك ما نراه من فائدة الالتفات في سورة الفاتحة : فإن العبد إذا افتتح حمد مولاه الحقيق بالحمد عن قلب حاضر ونفس ذاكرة لما هو فيه بقوله : الحمد لله الدال على اختصاصه بالحمد ، وأنه حقيق ، به وجد من نفسه لا محالة محركا للإقبال عليه ، فإذا انتقل إلى قوله : ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، الدال على أنه مالك للعالمين لا يخرج منهم شئ عن ملكوته وربوبيته قوى ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى قوله : ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الدال على أنه منعم بأنواع النعم جلائلها ودقائقها ، تضاعفت قوة ذلك المحرك ، ثم إذا انتقل إلى خاتمة هذه الصفات العظام وهي قوله : ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، الدال على أنه مالك للأمر كله يوم الجزاء تناهت قوته وأوجب الإقبال عليه وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فقال : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[3] وهكذا.

---

(١) الكشاف ١/٥٣٨.
(٢) الكشاف ١/٦٤.
(٣) الفاتحة ٥.

صور الالتفات:

للالتفات ست صور ، لأن كل واحد من الثلاثة – التكلم والخطاب والغيبة – ينقل إلى الآخرين ، وتجئ تلك الصور على النحو التالى :

١- الانتقال من التكلم إلى الخطاب كقوله تعالى ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١] انتقل من التكلم في قوله : وما لى لا أعبد الذى فطرنى إلى الخطاب فى قوله : وإليه ترجعون ، والقياس وإليه أرجع.

٢- الانتقال من التكلم إلى الغيبة ، كقوله تعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[٢] التفت من التكلم فى (يا عبادى) إلى الغيبة فى (رحمة الله) ومقتضى الظاهر أن يقال : من رحمتى ، فعدل عن ذلك لفائدة هى طمأنة التائبين بأنهم مغفور لهم من الله ، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾[٣] القياس فصل لنا لكنه عدل عن ذلك لما في لفظ الرب من الحث على فعل المأمور به ، وكقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] انتقل من التكلم فى قوله لنريه إلى الغيبة في قوله: إنه هو السميع ، وكان القياس أن يقال: إننى أنا السميع.

---

(١) سورة يس ٢٢.

(٢) سورة الزمر ٥٣.

(٣) سورة الكوثر ١ ، ٢.

(٤) سورة الإسراء ١.

٣- الانتقال من الخطاب إلى التكلم ، كقوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾[١] التفت من الخطاب في : استغفروا إلى التكلم في : إن ربي ، والقياس : إن ربكم ، ومن ذلك قول علقمة :

طحـا بـك قلب في الحسان طروب   بعـيد الشـباب عصر حان مشيب
يكلفـني لـيلى وقـد شـط وليها   وعـادت عـواد بيننـا وخطوب[٢]

التفت الشاعر من الخطاب في (بك) إلى التكلم في يكلفني ، ومقتضى الظاهـر أن يقـول : يكلفك فعدل إلى التكلم ، وفي قوله : طحا بك التفات على مذهب السكاكي فقط ، لأن القياس عنده أن يقول : طحا بي لأن المقام للتكلم فعدل عنه إلى الخطاب.

وقد روى البيت الثاني بالتاء في (تكلفني) وعليه فيكون الالتفات من الخطاب في بك إلى التكلم أيضاً ، إذ مقتضى الظاهر : تكلفني ليلى ، فعلى روايـة (يكلفني) – بالياء – ليس في البيت إلا التفات واحد عند الجمهور والسـكاكي وهـو من الخطاب في بك إلى التكلم في : يكلفني ، وكذا على رواية (تكلفني) بالتاء إن جعل الفاعل ليلى ويكون المفعول محذوفا تقديره : شـدائد فـراقها ، أما إن كان الفاعل ضمير القلب فيكون فيه التفاتان عند الطرفين :

---

(١) سورة هود ٩٠.

(٢) طحـا بـك أي ذهب بك ، في الحسان متعلق بقوله طروب ، بعيد الشباب أي حين ولى وكاد ينصرم ، عصر حان مشيب أي زمان قرب الشيخوخة وإقبالها ، شط وليها ، أي بعد قربها.

أحدهمـــا : فـــى الكاف فى (بك) مع ياء المتكلم فى تكلفنى ، لأن مقتضى الظاهر ، يكلفك أى القلب.

ثانـــيهما : فى قلب مع فاعل تكلفنى المقدر بأنت يا قلب ، فهو من الغيبة إلـــى الخطـــاب ، وعلـــيه يكون فى البيتين ثلاث التفاتات عند السكاكى والتفاتان عند الجمهور.

٤-الانتقال من الخطاب إلى الغيبة كقوله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾[١] القياس : إنك لا تخلف ، لكنه التفـــت مـــن الخطاب فى ربنا إنك إلى الغيبة فى : أن الله ، وذلك لأن النـــداء مـــن قبيل الخطاب والاسم الظاهر من قبيل الغيبة ، ومنه قوله تعالى ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[٢] فيه التفات على المذهبيـــن : مـــن الخطـــاب فى كنتم إلى الغيبة فى بهم ، وذلك لوجود التعبيريـــن مع مخالفة ثانيهما لمقتضى الظاهر ، لأن القياس : وجرين بكم.

٥-الانـــتقال من الغيبة إلى التكلم ، كقوله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[٣] التفت من الغيبة فى (وهو الذى) إلى التكلم فى قولنا (وأنزلنا) وفى التعبير الأول التفات علـــى مذهب السكاكى ، لأن مقتضى الظاهر عنده : وأنا الذى أرسلت الـــرياح ، لأن المقـــام للتكلم فعدل عنه إلى الغيبة ، ومن ذلك قول الله

---

(١) سورة آل عمران ٩.

(٢) سورة يونس ٢٢.

(٣) سورة الفرقان ٤٨.

سبحانه ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾[١] والقياس فساقه ، ففى التعبير الثانى – فسقناه – التفات على المذهبين ، وفى الأول (والله) التفات على رأى السكاكى وحده ، لأن مقتضى الظاهر عنده أن يقال : وأنا الذى أرسل ، ومن أمثلته أيضاً قوله سبحانه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ التفت من الغيبة فى قوله (أسرى بعبده) إلى التكلم فى قوله (لنريه من آياتنا) ومقتضى الظاهر :

بارك حوله ليريه من آياته.

٦-الانتقال من الغيبة إلى الخطاب : كما فى قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[٢] التفت من الغيبة فى قوله (مالك يوم الدين) إلى الخطاب فى قوله (إياك نعبد) والقياس إياه نعبد ، وقوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾[٣] انتقل من الغيبة فى قوله (بنى إسرائيل) إلى الخطاب فى قوله (لا تعبدون) والقياس : لا يعبدون.

ومن ذلك قوله تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾[٤] عدل عن الغيبة إلى الخطاب فى قوله (وما يدريك) والقياس أن يجئ الكلام على الغيبة فيقال : وما يدريه ، ومنه قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾[٥] القياس لقد جاءوا لكنه عدل عن ذلك إلى الخطاب.

---

(١) سورة فاطر ٩.
(٢) سورة الفاتحة ٢ ، ٣.
(٣) سورة البقرة ٨٣.
(٤) سورة عبس ١ – ٣.
(٥) سورة مريم ٨٨ – ٨٩.

أســـلوب الحكيم

هـــو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها له على أنه الأولى بالقصد ، أو تلقي السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره؛ تنبيهاً له على أنه الأولى بحاله أو المهم له.

ولكل من الحالين أمثلة تخصه ، فمثال الأول (تلقي المخاطب بغير ما يترقب) قول القبعثرى للحجاج عندما توعده بالقيد في قوله : لأحملنك على الأدهـــم – يريد القيـــد الحديد – فقال له : مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشـــهب – يـــريد الفـــرس الأبيض والفرس الأسود – فأبرز وعيده في صورة الوعد ، حملاً لكلامه على غير ما يترقب – فقال الحجاج ردا عليه: ويحك إنه لحديد ، فقال القبعثرى : لأن يكون حديداً خير من أن يكون بليدا – فحمل كلامه أيضا على غير ما يريد ليريه بألطف وجه أن من كان على مثاله من السلطان والسعة خليق به أن يعد لا أن يتوعد ويهدد ، ولذلك أعجب الحجاج ببلاغته وحسن تخلصه فصفح عنه ومن ذلك قول البغدادي.

قلـــت ثقلـــت إذ أتيـــت مـــرارا قـــال ثقلـــت كـــاهلي بالأيـــادي

قلـــت طولـــت قـــال بـــل تطولـــت وأبرمـــت قـــال حـــبل ودادي

فلفظ ثقلت وقع في كلام البغدادي بمعنى حملتك المؤنة والكلفة فحمله الآخر على معنى تثقيل عاتقه بالمنن والأيادي ، وكذلك قوله :

أبرمت وقع في كلام البغدادي بمعنى أمللت وقوله الآخر على معنى إبرام حبل الوداد وإحكامه.

ومثال الثاني (تلقي السائل بغير ما يتطلب) قوله تعالى على أحد الوجوه في الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾[1] سألوا الرسول ﷺ: ما بال الهلال يبدو ضئيلا دقيقا مثل الخيط ثم يتزايد حتى يصير بدرا ثم يتناقص فيعود كما بدا؟ فكان مقتضى ظاهر الكلام أن يجابوا ببيان هذا السبب، لكنهم أجيبوا ببيان الحكمة من هذا الاختلاف فقال: ﴿هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي أن الأهلة معالم للناس يعرفون بها مواعيد شعائرهم الدينية من حج وصيام وغيره كما ينظمون بها وسائل المعيشة من زراعة وغيرها، وكانت تلك الإجابة تنبيها لهم على أن الأولى بالسؤال هو هذا، فالسؤال جاء عن السبب لكن الجواب جاء عن الحكمة والثمرة المترتبة على ذلك تنزيلا لسؤالهم عن السبب منزلة السؤال عن الحكمة.

ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2] فقد سألوا عن بيان جنس ما ينفقونه أو عن مقدار ما ينفقون؟ فلم يجابوا ببيان ذلك وإنما أجيبوا ببيان المصارف التي يذهب إليها ما ينفقونه تنبيها لهم على أن هذا هو الأولى بالسؤال عنه، لأن الإنفاق لا تتحقق ثمرته إلا إذا وضع في موضعه، ولذلك نزل سؤالهم عن المنفق منزلة سؤال غيره أولى بحالهم وأليق وهو السؤال عن المصرف.

---

(١) سورة البقرة ١٨٩.

(٢) سورة البقرة ٢١٥.

ومــن ذلــك مــا وقع من العباس عندما سئل : أأنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال : رسول الله أكبر مني ولكني ولدت قبله ، فقد حمل السؤال عن كبر السن محل السؤال عن كبر المنزلة.

ومــن ذلــك : إجابة المهلب بن أبي صفرة حين سأله الحجاج : أنا أطــول أم أنت؟ فقال : أنت أطول وأنا أبسط قامة ، سأله عن الطول الذي هــو ضــد القصــر ، فأجابه عن الطول بمعنى التفضل ، تنبيهاً إلى ما هو الأولى والأجدر بالسؤال.

التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه

ومن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي تنبيها على تحقق الوقوع وأن ما هو للوقوع كالواقع، كقوله تعالى ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾(١) هذا النداء سيكون في المستقبل فكان القياس وينادى ، لكنه عدل عن ذلك للدلالة على تحقق الوقوع فعبر عنه بلفظ الماضي ، ومنه قوله تعالى ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٢) القياس ونحشرهم ، لكن لما أريد الدلالة ، على تحقق ذلك عبر عنه بالماضي ، ومنه قوله تعالى ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ﴾(٣) عبر عنه بالماضي مع أنه سيأتي بعد ذلك ، وذلك لأنه أمر محقق الوقوع.

وقد يعكس الأمر فيعبر عن الماضي بلفظ المستقبل بقصد استحضار الصورة الماضية ، كما في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ القياس : فأثارت سحابا ، لكنه لما أريد استحضار تلك الصورة العجيبة عبر عنها بلفظ المضارع ، ومنه قوله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾.(٤)

القياس : ما تلت ، لكن لما أريد استحضار الصورة الماضية عبر عنها بلفظ المستقبل.

---

(١) سورة الأعراف ٤٤.

(٢) سورة الكهف ٤٧.

(٣) سورة النحل ١.

(٤) سورة البقرة ١٠٢.

ويعـبر عـن المسـتقبل باسم الفاعل أو المفعول للدلالة على تحقق الوقوع كما هو الحال في التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾(١) أى سيقع – لأن وقوع الجزاء أمر مستقبل – لكنه عدل إلى اسم الفاعل تنبيها على تحقق الوقوع.

ومن التعبير عن المستقبل باسم المفعول قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾(٢) أى يجمع لـه النـاس لكنه لما كان متحقق الوقوع عبر عنه باسم المفعول.

(١) سورة المرسلات ٧.
(٢) سورة هود ١٠٣.

القلب[1]

ومن صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر أسلوب القلب.

وقد عرفه البلاغيون بقولهم: هو أن يجعل أحد أجزاء الكلام مكان الآخر، والآخر مكانه، وذلك لاعتبار لطيف، وهو ضربان :

الأول: أن يكون الداعي للقلب من جهة اللفظ، وذلك بأن يتوقف صحة اللفظ عليه، ويكون المعنى تابعاً له، كما إذا وقع ما هو في موقع المبتدأ نكرة، وما هو في موقع الخبر معرفة كقول الشاعر :

قفي قبل التفرق يا ضباعاً ولا يك موقف منك الوداعا

والشاهد في الشطر الثاني من البيت حيث إن الأصل أن يقال: ولا يك موقف الوداع موقفاً منك، إلا أن الشاعر (لما عرف (الوداع) وهو في موضع الخبر، ونكر (موقف) وهو موضع المبتدأ، جعل من باب القلب لتصحيح مقتضى الأصل ، من تعريف الأول، وتنكير الثاني، فيكون على أن الأصل : الإخبار بالأول عن الثاني، فالتقدير -كما قلنا- ولا يكن موقف الوداع موقفاً منك، ولو كان الشاعر نكر لفظ (الوداع) لصح المعنى على ظاهره، واستغنينا عن تقدير القلب في الأسلوب؛ لأنه حينئذ يكون الأسلوب جاء على الأصل من تعريف المبتدأ، وتنكير الخبر كما هو رأي النحاة[2].

---

(١) ينظر : المطول صـ٢٩٧-٣٠٠ ، والأطول جـ١ صـ ٤٢٧ : ٤٢٩.

(٢) ينظر : من أسرار النظم العربي جـ١ صـ٢٢٦.

الضرب الثاني : أن يكون الداعي إلى اعتبار القلب من جهة المعنى؛ لتوقف صحته، ويكون اللفظ تابعاً، وذلك نحو قولهم: عرضت الناقة على الحوض، والمعنى عرضت الحوض على الناقة، أي أظهرته عليها لتشرب، وأريتها إياه، وفي هذا القلب اعتبار لطيف هو أن المعتاد أن يؤتى بالمعروض إلى المعروض عليه، فحيث أتى بالناقة إلى الحوض جعلت كأنها معروضة، والحوض معروض عليه، ومن المعلوم أن الحوض لا رؤية له ، فقلبوا الكلام، رعاية لهذا الاعتبار ، ونزل الحوض منزله الناقة وجعل كأنه يرى.

آراء البلاغيين في أسلوب القلب :

- يرى بعضهم أن هذا الأسلوب مقبول مطلقاً؛ لأنه مما يورث الكلام ملاحة.

- وذهب آخرون إلى أنه مردود مطلقاً؛ لأنه عكس المطلوب ونقيض المقصود.

- وفريق ثالث يقول بالتفصيل :

فإن تضمن معنى لطيفاً قبل، وإلا فلا، أي أنه إذا لم يتضمن اعتباراً لطيفاً كان مردوداً؛ لأنه عدول عن الظاهر من غير نكتة تفيدها.

ومثال ما تضمن معنى لطيفاً قول رؤبة بن العجاج :

ومهمه[١] مغبرة أرجاؤه[٢]　　　كأن لون أرضه سماؤه

---

(١) المهمة : المفازة (الصحراء)

(٢) أرجاؤه : أطرافه ونواحيه جمع رجى بالقصر كرحى.

فالشطر الثاني من البيت من باب القلب، والمعنى على حذف المضاف أي لون سمائه، والمعنى أو الأصل: كأن لون سمائه لغبرتها لون أرضه أي كلونها، والنكتة والاعتبار اللطيف فيه هو : المبالغة في وصف لون السماء بأنه قد بلغ من الغبرة حتى صار يشبه لون الأرض في ذلك مع أن الأرض أصل فيه أي في الغبرة.

ومثال ما لم يتضمن اعتباراً لطيفاً قول القطامي :

فلما أن جرى سمن عليها كما طينت بالفدن[1] السياعا[2]

فهو يصف ناقته بالسمن، ويبالغ في ذلك إلى أن جعل اللحم المكتسب صار أصلاً في بدنها، ومعروض السمن صار فرعاً كما جعل السياع أصلاً، كما أن ناقته صارت ملساء من السمن كالقصر المطين بالسياع.

ويلاحظ أن القلب في البيت واقع في الشطر الثاني منه، والمعنى فيه: كما طينت بالسياع الفدن، باعتبار أن الفدن (القصر) يدهن بالسياع (الطين المخلوط بالتبن)، لا العكس.

وعلى رأي الفريق الثالث : أن القلب في هذا البيت -الأخير- لا يتضمن اعتباراً لطيفاً، وقالوا : وللقائل أن يقول: إنه يتضمن من المبالغة في وصف الناقة؛ لإيهامه أن السياع وقد بلغ من العظم والكبر إلى أن

(١) الفدن : القصر.
(٢) السياع : الطين المخلوط بالتبن.

صار بمنزلة الأصل، والفدن بالنسبة إليه كالسياع بالنسبة إلى الفدن، وهذا مردود؛ إذ ليس القلب فيه متضمناً لاعتبار لطيف.

ولكن الأقرب إلى الصواب أن يقال : أن القلب تضمن اعتباراً لطيفاً، وهــو المبالغة في وصف الناقة بالسمن إلا أنه جعل السياع أصلاً، والفدن تابعاً له بإدخال الباء عليه، ويلزم منه جعل السمن في الناقة أصلاً، والناقة فرعاً عليه. والله أعلم.

أحوال المسند

المسند هو المحكوم به على المسند إليه وله أحوال تتعلق به من الحذف والذكر والتقديم والتنكير وغيرها، وسنعرض هنا لبعض منها على النحو التالي:

حذف المسند :

الحذف يقتضي وجود قرينة تدل على المحذوف فإن لم توجد تلك القرينة يكون الحذف إلغازاً وتعمية ولا يصلح المصير عليه لأنه حينئذ يؤدى إلى فساد الكلام.

هذا ولحذف المسند دواع منها :

١- الاحتراز عن العبث في الظاهر لدلالة القرينة عليه ، كقول الشاعر:

ومن يك أمسى بالمدينة رحله　　　فإني وقيار بها لغريب

قيار اسم فرس الشاعر والمراد: إني لغريب وقيار أيضاً غريب، لكنه حذف المسند من الثاني بقصد الاختصار والاحتراز عن العبث لدلالة الأول عليه.

وهذا البيت يمكن أن يكون الحذف فيه لنكتة أخرى غير الاختصار وهي ضيق المقام والتحسر بسبب ما يعانيه الشاعر في الغربة بالإضافة إلى المحافظة على وزن البيت.

ومن أمثلة الحذف للاحتراز عن العبث قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما　　　عندك راض والرأي مختلف

(راض) خبر عن الثاني (أنت) وخبر الأول (نحن) محذوف دل عليه المذكور تقديره راضون– وذكره يؤدي إلى العبث في ظاهر الأمر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾(١) على وجه، بأن يكون المراد: والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك فحذف المسند من الثاني لدلالة الأول عليه، ومن ذلك قولك: زيد منطلق وعمرو أي وعمرو كذلك.

٢– ويحذف المسند اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب في تركه، كقول الشاعر:

إن محلاً وإن مرتحلا ... وإن في السفر إذ مضوا مهلا

يقول: إن لنا في الدنيا حلولاً وإن لنا عنها ارتحالاً إلى الآخرة، وإن الراحلين عن الدنيا قد توغلوا في الغيبة فلم يعودوا ونحن على أثرهم، فحذف المسند الذي هو خبر إن اتباعاً للاستعمال الوارد عن العرب، لأنهم يحذفون الخبر عند تكرار إن وتعدد اسمها، ومنه قول القائل لك : إن الناس إلب عليك فهل لك من أحد؟ فتقول: إن محمداً وإن علياً، أي إن لي محمداً وإن لي علياً.

٣– ويحذف المسند لوقوعه في كلام واقع جواباً لسؤال محقق أو مقدر، والمراد بالسؤال المحقق: ما وجدت صورته في الكلام وإن لم يوجد بالفعل وبالمقدر: ما لم توجد له في الكلام صورة، مثال الأول: قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾(٢) إلى

(١) سورة التوبة الآية ٦٢.
(٢) سورة لقمان الآية ٢٥.

خلقهــن الله، حذف المسند إلى لفظ الجلالة لوقوعه في جواب السؤال المذكــورة صــورته- ومثال الثاني: قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾(١) على بناء الفعل للمفعول، حذف المسند إلى رجال لوقوعه في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل: من يسبحه؟ فيقال: رجال، أي يسبحه رجال.

٤- وقد يحذف المسند لتعظيمه:

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾(٢). وتقديــر المسند المحذوف: كمن ينعم في الجنة؟ والحذف هنا مشعر بتعظيم المحذوف، وأنه أكرم على الله من أن يذكر في مقابلة هذا الشقي، وفيه أيضاً القصد إلى أن يــتجه الهــم كله إلى المذكور الذي يتقي بوجهه سوء العذاب ليمتلئ القلب بصورته وهو في النار فزع طائش، لا يدري كيف يدرأ العذاب عن نفسه فهــو يتقي بوجهه. والوجه تشوؤه النار، والذي فيه نبضة من نفس وعقل يتقي وجهه من النار ولا يتقي بوجهه النار. ولكن المذكور قد طاشت نفسه وأفــرغ لــبه مــن هول ما يرى فهو مختبط والله. ثم إن في ذكر الوجه هنا إشــعار بإهانــة هــذه الوجوه وذهاب أقدارها. فالوجه فيه معنى الشرف والــتقدم.. وصــورة اتقاء النار بالوجه من أبلغ ما يؤثر في النفس حين تحسن تصورها(٣).

---

(١) سورة النور ٣٦، ٣٧.

(٢) سورة الزمر الآية ٢٤.

(٣) خصائص التراكيب صـــ٢١٦،٢١٧.

٥- وقد يحذف المسند للازدراء والتحقير :

من ذلك ما جاء في قوله تعالى : ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١] بمعنى يقال لهم : هل تجزون إلا ما كنتم تعملون، وفي تلك توبيخ ما بعده توبيخ.

وكقوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٢] والمسند المحذوف تقديره: كمن ليس كذلك، والقائم على كل نفس هو الله -سبحانه- أي متول أمر كل نفس حافظ شأنها حفظ القائم على الشئ يحرسه ويصونه[٣].

وكذلك قوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾[٤] والتقدير: كمن أقسى قلبه، وجعل صدره ضيقاً حرجاً؟ فقد أشعر الحذف هنا بتعظيم المسند إليه -وهو من شرح الله صدره للإسلام- في مقابل حذف المسند ازدراء له حتى لا يذكر مع المسند إليه، فهو ليس جديراً بأن يذكر معه فهو ضيق الصدر قاسي القلب، وذاك منشرح الصدر وعلى نور من ربه.

---

(١) سورة النمل ٩٠.

(٢) سورة الرعد ٣٣.

(٣) خصائص التراكيب : ٢٠٦.

(٤) سورة الزمر : ٢٢.

٦- ومن دواعي حذفه المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ :

كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

والتقدير : وإن استجارك أحد من المشركين استجارك فأجره، فحذف الفعـــل الأول" استجارك؛ لأن المذكور يفسره، ولأن "إن" الشرطية تختص بالدخول على الأفعال، فإذا دخلت على اسم قدر الفعل بعدها، وأعرب الاسم حسب ما يقتضيه الفعل المقدر.

وغـــرض الحـــذف هنا المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ، إذ لو قيل وإن اســـتجارك أحـــد من المشركين فأجره، لفصل بين الاستجارة والأمر بقـــبولها "فأجـــره" بفاصل هو "أحد من المشركين" ، والمطلوب أن يكون الجواب عقب الإجارة بلا ريث "استجارك فأجره" فحذف الفعل الأول وهو أصل الباب، والإحالة إلى مفسره -استجارك- هو الذي حقق هذا الغرض المفهوم من نظم الآية ، وللفاء في هذا التعبير موقع جليل، فقد وصلت بين الفعليـــن، وهمـــا طلب المشرك أن يجار وقبول الرسول ﷺ لهذا الجوار، وجعلتهما كأنهما فعل واحد(٢).

وقـــد يأتي الكلام على صورة الحذف ثم يحتمل أن يكون المحذوف المســـند أو المســـند إلـــيه والمذكـــور أحدهمـــا، ومـــن ذلك قوله تعالى:

---

(١) سورة التوبة الآية ٦.

(٢) مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة العدد الثامن : ١٤٣.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾[١] قال العلماء : قد يكون المحذوف المسند ويكون التقدير فصبر جميل أجمل، أو أمثل وقد يكون المحذوف المسند إليه ويكون التقدير: فأمري، أو فشأني صبر جميل ، وقد رجح أن يكون المحذوف المسند إليه؛ لأنه الكثير الغالب وقوعه في الكلام، ولأن الكلام مسوق لمدح سيدنا يعقوب –عليه السلام– فيكون الكلام دلالة مباشرة على حصول الصبر له عليه السلام، ولا يتحقق هذا الغرض على تقدير حذف المسند[٢].

وممـا يحتمل الأمرين قوله تعالى : ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٣] فتقدير المحذوف : هذه سورة أنزلناها. أو فيما أوحينا إليك سورة أنزلناها.

٦– وقد يفيد حذف المسند التأكيد والاختصاص: كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾[٤].

والتقدير: "لو تملكون تملكون: مكرر للتأكيد ، فأضمر تملكون الأولى إضمـاراً علـى شريطة التفسير ... فأنتم فاعل الفعل المضمر، و"تملكون" المذكور تفسيره، ودليل الحذف "لو"؛ لأن "لو" لا تدخل إلا على الأفعال[٥].

---

(١) سورة يوسف : ١٨ ، ٨٣.

(٢) ينظر : المطول صـ١٤٥.

(٣) سورة النور الآية ١.

(٤) سورة الإسراء الآية ١٠٠.

(٥) دراسات في علم المعاني د. إبراهيم الخب وآخرون : ٢٧٣.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(١) أي خلقهن الله. وكذلك قول حاتم الطائي عندما لطمته أمة: "لو ذات سوار لطمتني" وهو مثل يضرب للشريف يهينه الخسيس. حذف المسند إلى "ذات سوار" على تقدير: "لو لطمتني ذات سوار لطمتني "فـ" ذات سوار فاعل لفعل محذوف دل عليه دخول "لو" على المسند إليه(٢).

قرينة حذف المسند:

وبعد هذه الجولة بين دواعي وأسرار حذف المسند، نجد العلماء قد اشترطوا -فيما حذف فيه المسند- وجود دليل وقرينة على هذا الحذف، حتى يكون معيناً على فهم المعنى، وإن لم تكون هناك قرينة على المحذوف كان هناك خلل في المعنى، وهذا ما تأباه البلاغة، وهذه القرينة إما أن تكون لفظية أو غير لفظية.

١- فالقرينة اللفظية هي المذكورة في الكلام، كوقوع الكلام جواباً عن سؤال محقق، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾(٤).

(١) سورة لقمان : ٢٥.
(٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن د/ عبد الفتاح لاشين : ١٥٤.
(٣) سورة العنكبوت : ٦٣.
(٤) سورة لقمان : ٢٥.

وتقديــر المســند في الآية الأولى : نزّله وأحيا به الأرض الله، وفي الثانية خلقهن الله[١].

٢- وغــير اللفظــية: وهــي التي ليست مذكورة في الكلام، وذلك كوقوع الكــلام جوابــاً عــن سؤال مقدر كقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ﴾[٢] على بناء الفعل للمفعول حذف المسند إلى رجال لوقوعــه في جواب سؤال مقدر ، كأنه قيل: من يسبحه؟ فقال: رجال، ذلك على نحو ما مر في دواعي حذف المسند.

ومن ذلك قول الشاعر ضرار بن نهشل يرثي أخاه يزيد بني نهشل:

ليــبك يــزيد ضــارع لخصــومه ∴ ومختــبط مما تطيح الطوائح[٣][٤]

ليــبك : بالبناء للمجهول، و "يزيد" نائب فاعل، وكأن سائلاً سأل من يبكيه؟ فقال : ضارع، فترك المسند، وتقديره: يبكيه ضارع أي ذليل.

ذكر المسند :

حيــنما تقــول ابتداء "الجو معتدل" فتذكر المسند الذي هو "معتدل" ؛ وذلــك لأنــه ليس في الكلام ما يدعو إلى حذفه ، لذا قال البلاغيون : إن المســند يذكــر فــي الكلام لكونه ذكره هو الأصل ، وليس في الكلام ما

---

(١) من بلاغة النظم العربي د/ عبد المعطي عرفة : ٢٤١.

(٢) سورة النور ٣٦،٣٧.

(٣) المختبط : الذي يأتي إليك للمعروف من غير وسيلة.

(٤) والطوائح : جمع مطيحة : الشدائد ، أي يبكي لأجل ذهاب المنايا يزيد.

يقتضي العدول عنه ، وهناك مقامات أخرى تخرج عن هذا الأصل حسب مقتضيات الكلام ومقاماته.

١-قد يذكر المسند للاحتياط لضعف التعويل على القرينة ، كقولك : "عنترة أشجع وحاتم أجود" في جواب من سألك : من أشجع العرب في الجاهلية وأكرمهم؟ فتذكر أشجع وأجود ؛ خشية أن يلتبس على السامع إذا قلت : عنترة وحاتم من غير أن تعين صفة كل واحد منهم فلا يدرى أيهم الأشجع والأجود.(١)

ومن هذا القبيل قولك : "عقل في السماء وحظ مع الجوزاء" فلو حذفت قولك "مع الجوزاء" ما دل عليه المذكور دلالة قاطعة ، إذ يحتمل أن يكون الحظ عاثراً كما هو شأن الكثيرين من ذوي الآراء والعقول.

وقد يذكر تعريضاً بغباوة السامع كما جاء في قوله تعالى ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾(٢) وذلك في جواب قولهم ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(٣) فلو قال : بل هذا ، لكان المسند مفهوما لدلالة السؤال الصريح عليه ، إلا أنه – عليه السلام – عدل عن الحذف ؛ لأن في الحذف تعويلا على ذكاء المخاطب وتنويها بفهمه.

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ٢٧٧.
(٢) سورة الأنبياء ٦٣.
(٣) سورة الأنبياء ٦٢.

ومثل ذلك قولك : "سيدنا محمد نبينا" في جواب من سأل : من نبيكم؟ فكان من الممكن ترك لفظ "نبينا" لدلالة القرينة عليه ، ولكنك ذكرته للتعريض بغباوة السامع ، وأنه لا يعلم الأمور البديهية.

٢-وقد يذكر للاستلذاذ بذكره مثل قوله : "هي سعاد" في جواب سؤال ، هل هذه سعاد؟ وكان من الممكن حذف المسند إليه لوجود القرينة الدالة عليه وهي ذكره في السؤال ، ولكنه ذكر للاستلذاذ بذكره ، وهذا يكثر في شعر النسيب والغزل ، تعبيرا عن الحالة النفسية لمن يكتم هواه ، فيعبر عن ذلك بمجرد ذكر الذي يهوى.(١)

٣-وقد يذكر المسند لزيادة تقرير الكلام وتثبيت معناه وتوضيحه في نفس السامع والقارئ حين يتعلق الغرض بهذا ، ومثال هذا قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾(٢) فإن المسند لو حذف لدل عليه السؤال ، وقد جاء كذلك في آيات أخرى ، إلا أن المقصد من ذكره هنا زيادة تقرير خلق الله للسموات والأرض.(٣)

ومثله قوله تعالى ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(٤) فقد

---

(١) من بلاغة النظم العربي ٢٤٥ ، ٢٤٦.

(٢) سورة الزخرف ٩.

(٣) خصائص التراكيب ٢٢٨.

(٤) سورة يس ٧٨ ، ٧٩.

ذكر المسند في قوله ﴿يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا﴾ وفي السؤال ما يدل عليه كما ترى.

٤-وقد يذكر ليتعين كونه فعلاً ، فيفيد التجدد والحدوث مثل "محمد يصلي" ويجمع ذلك قوله تعالى ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾(١) فالجملة الأولى (يخادعون الله) جاء المسند فيها (يخادعون) فعلاً دالاً على التجدد والحدوث ، فخداعهم غير متوقف ، والجملة الثانية وهو خادعهم "جاء المسند فيها اسما وهو "خادعهم" مفيدا ثبوت ، أي ثبوت خداع الله هؤلاء.

دواعي تنكير المسند :

يؤتى بالمسند منكرا للأغراض الآتية :

١- أن يراد عدم الحصر والعهد المفهومين من تعريفه ، يعني عدم حصر المسند في المسند إليه أو عدم العهد والتعيين في المسند بأن يكون الغرض مجرد الإخبار بثبوت المسند للمسند إليه كقولك : زيد كاتب ومحمد شاعر وعلي فاهم ، وقولهم : القناعة كنز لا يفنى ، لما كان الغرض في الأمثلة المذكورة مجرد الأخبار دون النظر إلى اعتبار آخر جاء المسند منكرا.

٢- القصد إلى تفخيم شأن المسند وارتفاع قدره ، كقوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٢) نكر "هدى" لبيان أن القرآن لا

(١) سورة النساء ١٤٢.

(٢) سورة البقرة ٢.

بكنــه كنهه ولا يمكن وصفه ، وذلك بناء على أن هدى للمتقين خبر ذلك الكتاب أو على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

٣- القصـــد إلى تحقير المسند والتهوين من شأنه ، كقولك : ما زيد شيئا ، وكمــا تقــول لإنســان يفتخر بنفسه : أنت نطفة ، فالتنكير في نطفة مقصــود بــه التهوين لكي يتبين المفتخر أن أصله حقير فيرتدع عن الافتخار ويتواضع ، وكذلك : نصيبي من المال بدرة ، أو من الشراب قطــرة ، أي شــئ تافه لا قيمة له ، ومن ذلك قــول قيس بن جروة يخاطب عمرو بن هند الملك :

غــدرت بعهــد كنــت أنــت دعوتنا ... إلــيه وبــئس الشيمة الغدر بالعهد

وقــد يــترك الغــدر الفتى وطعامه ... إذا هــو أمسى حلبة من دم الفصد

يــندد هــذا الشاعر بالملك لأنه غدر بالعهد ويذكر أن الرجل الفقير المعــدم لا يرضــى بنقض العهد ويترفع عن ذلك فكيف بملك؟ لذلك كان تنكير المسند (حلبة) لبيان أن طعام هذا الرجل قليل ضئيل لا يتجاوز مقدار حلبة من دم عرق مفصود ، وفيه كناية عن رقة الحال.

٤-وينكر المسند لكون المسند إليه نكرة نحو : رجل من قبيلة كذا حاضر، وجــب تنكير المسند هنا لأن كون المسند إليه نكرة والمسند معرفة غير موجودة في كلام العرب.

تعريف المسند :

حيـنما يعـرف البليـغ المسند فإن ذلك يكون لدواعٍ وأسرار بلاغية كثيرة، فمثلا من أغراض تعريفه باللام :

١-**إرادة العهد** : وذلك إذا كان المسند معلوماً ومعهوداً للمخاطب ، ويتجلى لـك ذلك عندما تعرف الفرق بين قولك : "زيد منطلق" ، وقولك : "زيد المـنطلق" وأنك في "زيد منطلق" أثبت لزيد انطلاقا لم يكن معلوما لدى المخاطـب ولـم يكن يعرف عنه شيئا ، أي مجرد الإخبار فقط ؛ لأنه خـالي الذهن، وفي "زيد المنطلق" أثبت الانطلاق المعهود الذي يعرف المخاطـب وقوعه ، ولم يكن يعرف ممن وقع ، أثبته لزيد على القطع، بعـد أن كـان يحملـه على زيد ، أو عمرو ، أو علي .. إلخ ، ونفيت اشتراك أحد مع زيد فيه.

ولهذا يصح في الأولى : "زيد منطلق وعمرو" ؛ لأن الانطلاق غير معهود ، فيجوز أن تشرك فيه عمراً أو زيداً ولا يصح في الثانية أن تقول: "زيد المنطلق وعمرو" ؛ لأن الانطلاق المعلوم أثبت لزيد على سبيل القطع والاختصـاص فـلا يصح اشتراك عمرو فيه ؛ لأن العهد قصر الانطلاق على زيد، فلا تصح فيه الشركة بعد ذلك.[1]

٢-إفـادة القصر الادعائي على سبيل المبالغة في إثبات المعنى ، ويقع هذا الغرض في مقامات الفخر والمدح والرثاء ، ونحوها غالبا ، كما يقول :

---

(١) ينظر دلائـل الإعجـاز للإمام عبد القاهر الجرجاني : ١٨٦ تحقيق أ/ محمود شاكر، وخصائص التراكيب ٢٣٩ ، ٢٤٠ ودراسات في علم المعاني ٢٩٥.

حــاتم الجــواد ، وعلــى الشجاع ، والمعنى : أن حاتما هو الكامل فى الجود، وعليا هو الكامل فى الشجاعة ، وكأن شجاعة وجود غيرهما لا يعتد بهما لقصورهما عن درجة الكمال الموجود فى جود حاتم وشجاعة على.

٣-وقــد يفيد قصر المسند على المسند إليه قصراً حقيقيا ، وذلك كقولك : "محمد العالم" إذا لم يكن هناك في الحقيقة عالم سواه.

٤-وقــد يفيد القصر الإضافى كما جاء في قوله سبحانه ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.(١)

أى أنت الأعلى ، لا هم ، فقد أفاد تعريف المسند باللام – الأعلى – قصره على المسند إليه – إنك –، أى أن العلو لا يتعداه إلى السحرة.

ويعرف المسند باسم الموصول فتكون له أسراره البلاغية :

فحينما يعمد البليغ إلى تعريف المسند باسم الموصول فهو بذلك يعني معنى الكمال فى الصفة ، وهو ما تفيده كلمة "الذى" فى كثير من مواقعها ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخــوك الــذى إن تدعــه لملمــة ... يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

فقــد عبر باسم الموصول عن صفة عالية تتمثل فى الأخ ، وفى هذا يقــول شيخ البلاغيين الإمام عبد القاهر الجرجانى : "فهذا ونحوه على أنك قــدرت إنساناً هذه صفته ، وهذا شأنه ، فأعلمته أن المستحق لاسم الإخوة

(١) سورة طه ٦٧ ، ٦٨.

هو ذلك الذى عرفه ، حتى كأنك قلت "أخوك زيد الذى عرفت أنك إن تدعه لملمة يجبك".(١)

كمـا يفـيد تعـريف المسند باسم الموصول – مع إفادة قصره على المسـند إلـيه – لطائف ودقائق أخرى ، هى اشتهار جملة الصلة ، وأنها أصـبحت أمـراً معـروفاً بيـن الـناس ، وأنها مما يجب انشغال الناس بمضمونها، كقول المتنبى(٢) :

أنـا الـذى نظـر الأعمى إلى أدبى وأسـمعت كلمـاتى مـن به صمم

وهذا النوع كثير فى القرآن الكريم ، فمنه قول الحق سبحانه :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ... وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.(٣)

دواعى تقديم المسند :

يقدم المسند فى الذكر لأغراض بلاغية تقتضى ذلك ومنها :

١-تخصـيص المسند بالمسند إليه ، بمعنى جعل المسند إليه مقصوراً على المسـند كقولـك : أزهرى أنا ، قدم المسند (أزهرى) لبيان أن المتكلم مقصـور علـى كونـه أزهريا فلا يتعدى ذلك إلى كونه من خريجى الجامعات الأخرى مثلا ، ومثله قولك : قائم زيد ، قدم المسند لإفادة أن

(١) دلائل الإعجاز ١٨٥.
(٢) فى ديوانه : ٣٦٧/٣ – ط الحلبى بشرح العكبرى.
(٣) سورة المؤمنون ٧٨ – ٨٠.

زيداً مقصور على القيام لا يتجاوزه إلى القعود ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾(١) قدم المسند (لله) لإفادة التخصيص ، بمعنى أن ملك السموات والأرض وصف خاص به سبحانه وتعالى دون غيره ، وقوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(٢) قدم المسند في الموضعين لإفادة قصر دينهم على كونه لهم لا يتجاوزهم إليه عليه الصلاة والسلام وقصر دينه عليه لا يتجاوزه إليهم ، ومنه قول أبي تمام:

لك القلم الذي بشباته يصاب من الأمر الكلى والمفاصل

يقول لممدوحه : إن لقلمك شأناً عظيماً فهو إذا حدث أصاب من الأمور أفضلها وجرت على أسلته كبريات الأحداث ، قدم المسند (لك) للتخصيص ، يعني أن القلم الموصوف بذلك خاص بالممدوح لا يتعداه إلى غيره ، فكأنه قال : إن القلم المذكور لك لا لغيرك.

٢-التنبيه من أول الأمر على أن المسند خبر لا صفة ، لأن النعت لا يتقدم على المنعوت كقول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

قدم المسند (له) لأنه لو أخر عن المبتدأ (همم) لتوهم السامع أن الجار والمجرور صفة وأن المبتدأ سيأتي بعد ذلك ، لأن النكرة تحتاج إلى النعت

(١) سورة آل عمران ١٨٩.
(٢) سورة الكافرون ٦.

أكثر من احتياجها إلى الخبر ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١) قدم المسند في الآية (لكم) لئلا يتوهم من تأخيره أنه صفة.

٣-التفاؤل ، ليقع ما يسر المخاطب في بداية الكلام كقولك لزميلك في الامتحان: موفق أنت ، وقولك لمريض تزوره : في عافية أنت ، ومنه قول الشاعر :

سعدت بغرة وجهك الأيام ... وتزينت ببقائك الأعوام

قدم المسند في الأمثلة المذكورة بقصد التفاؤل ليسمع المخاطب ما يسره في أول الكلام.

٤-التشويق إلى ذكر المسند إليه بأن يكون في المسند ما يشوق نفس السامع إلى ذكر المسند إليه فيقع في قلب السامع موقعاً حسنا ، كقول محمد بن وهب يمدح المعتصم :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها ... شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر

وذلك على تقدير أن (ثلاثة) خبر مقدم ، فقدم المسند لكونه مشتملا على وصف مشوق لذكر المسند إليه ليتمكن ما يلقى إلى المخاطب بعد ذلك في النفس فضل تمكن ، ومنه قول أبي العلاء :

وكالنار الحياة فمن رماد ... أواخرها وأولها دخان

---

(١) سورة البقرة ٣٦.

يشبه الحياة بالنار ، فالنار تبدأ دخانا ثم تقوى لتكون لهيبا ثم تتحول إلى رماد ، وكذلك الإنسان يولد ضعيفاً ثم يصبح شابا قويا ثم يصيبه الهرم فيعود ضعيفا كما بدأ ، فقدم المسند (كالنار) لأن في ذكره أول الكلام ما يثير في النفس التشوق لذكر ما بعده فيتمكن في النفس خير تمكن ، ومنه : منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال ، وذلك إذا قدر أن (منهومان) خبر مقدم.

٥-الاهتمام بأمر المقدم كقوله تعالى:﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(١)

ومنه قوله :

غافل أنت والليالي حبالى بصنوف الردى تروح وتغدو

(١) سورة مريم ٤٦.

أحوال متعلقات الفعل

متعلَّقات الفعل – بكسر اللام على الأرجح – هي كل ما يتصل ويتعلق به، والفعل يتعلق به الفاعل، والمفعول به، والجار والمجرور، والظرف والحال، والتمييز ، والمفعول لأجله، والمفعول معه .. إلخ.

وحال الفعل مع المفعول ، كحاله مع الفاعل ، فإسناده للفاعل لبيان وقوعه منه ، وتعديته للمفعول لبيان وقوعه عليه ، فالفاعل والمفعول يجتمعان في أن عمل الفعل فيهما إنما كان ليعلم التباسه بهما ، فرفعه للفاعل ليعلم التباسه به من جهة وقوعه منه ، ونصبه للمفعول ليعلم التباسه به من جهة وقوعه عليه.

هذا ، والمراد بأحوال متعلقات الفعل ما يعرض لها من أمور ، كتقييد الفعل ، وحذف المفعول ، وتقديمه على الفعل ، وتقديم المعمولات بعضها على بعض ، ومن هنا يمكن القول بأن أحوال متعلقات الفعل تشمل :

١- أغراض تقييد الفعل.

٢- حذف المفعول.

٣- التقديم في المتعلقات.

أ-أغراض تقييد الفعل :

يقيد الفعل بالمعمولات ونحوها : كالشرط والحال والتمييز – لغرض هو زيادة الفائدة ؛ وذلك لأن الحكم كلما ازداد تقييدا ازداد فائدة.

ويتضح ذلك حينما تلاحظ الفرق بين قولنا مثلا : فلان حافظ ، وقولنا فلان حفظ القرآن الكريم سنة كذا في بلد كذا.

هذا والقيد في نحو "كان زيد مجداً" ، هو "مجدا" لأنه المسند ، والقيد هو "كان" الدال على زمان النسبة.

هــذا وقــد قال البلاغيون : إن تقييد الفعل بشئ من هذه القيود إنما يكــون لتربية الفائدة وإحداث زيادتها معه ، وهذا يعني أنه يترك تقييده إذا منع من زيادة الفائدة مانع ومن ذلك :

١- خوف انقضاء الفرصة ، كما في نحو قولك للصياد : الصيد محبوس ، أو حــبس ، دون أن تقول له : محبوس في الشرك مثلاً وذلك لينتهز الفرصة فيدرك الصيد قبل فواته بالفرار ، أو بالموت حتف أنفه.

٢- إرادة ألا يطلــع الحاضرون على زمان الفعل أو مكانه أو مفعوله كأن يقول قائل مثلا : سأسافر – وهو يقصد – سأسافر اليوم ، أو سأسافر غــداً صباحاً، ولكنه لا يذكر ذلك لئلا يعلم الحاضرون زمان الفعل ، فيصيبه منهم بسبب ذلك مكروه.

٣- عدم العلم بالقيد ، كأن تقول مثلا : قابلت – دون أن تذكر مفعولاً لعدم علمــك بمــن قابلــته ، إلى غير ذلك من الموانع كالرغبة في مجرد الاختصار لضيق صدر المتكلم ، أو السامع ، وكالاحتراز عن العبث ، وذلك إذا دل على القيد دليل يغني عن ذكره.[١]

---

(١) علم المعاني : ١١٨ ، ١١٩.

تقييد الفعل بالشرط:

أدوات الشرط جمة وكثيرة ، وللبليغ فيها تأنقات وتصرفات من خلال نظمه الكلام بواسطتها ، لذا تراه – أي البليغ – يستعمل منها ما يوافق غرضه في أداء معانيه ، فهو يعتبر في كل مقام ما يلائمه.

ولم يفصل البلاغيون الكلام في أدوات الشرط ، اعتماداً على جهود النحويين في ذلك ، بحيث فصلها علم النحو أتم تفصيل ، وقد درج البلاغيون على ذكر ثلاث أدوات منها فحسب هي : "إذا ، وإن ، ولو".

فمعلوم أن "إن وإذا" للشرط في الاستقبال ؛ أي تفيد أن تعلق حصول الجزاء بحصول الشرط في المستقبل.

والمعنى الأصلي "لإن" الذي تستعمل فيه على سبيل الحقيقة اللغوية هو : عدم جزم المتكلم بوقوع الشرط في الاستقبال.

والمراد بعدم الجزم بوقوع الشرط في الاستقبال : الشك في وقوعه في المستقبل ، وتوهم وقوعه فيه ، كما تقول لصاحبك : "إن تكرمني أكرمك" وأنت لا تقطع بأنه يكرمك ، ولذلك كان الحكم النادر موقعاً "لإن" لكونه غير مقطوع به في الغالب ، ومعنى في الغالب "أن النادر قد يقطع بوقوعه كيوم القيامة فإنه نادر ، ومع ذلك مقطوع به ، وإنما كان يوم القيامة نادراً ؛ لأنه لا يحصل إلا مرة ولا تكرار لوقوعه.

وأمـــا قولهـــم : "إن مـــات فلان فافعل كذا" فقد دخلت "إن" على أمر مجـــزوم الوقوع ، أجاب الزمخشري[١] عليه بقوله : بأن وقت الموت لما كان غير معلوم استحسن دخول "إن" عليه.[٢]

ومعلـــوم كذلـــك أن "لو" للشرط في الماضي ، وكون "مهما ، ومتى" لعمـــوم الـــزمان و "أين" لعموم المكان ، و "من" لعموم من يعقل ، و "ما" لعمـــوم غـــير العاقل ، و "كلما" للتكرار .. إلى آخر ما استوفى علم النحو بيانه والاعتبار في كل مقام بما يناسبه من معاني تلك الأدوات ، فمثلا إذا كان المخاطب يعتقد أنه إن كرر المجيء إليكم مللت منه واستثقلته فتقول نفيا لذلـــك كلما جئتني ازددت فيك حباً ، أما إذا كان يعتقد أن الجائي في وقت كذا لا يصادف طعما عند زيد مثلا ، تقول نفيا لذلك متى جئت زيدا وجدت عـــنده طعامـــا ، أو كـــان يعتقد أنك لا تجالسه إلا بالمسجد مثلا قلت: أينما تجلـــس أجلـــس معك، أو كان يعتقد أنك لا تكرم إلا من كان من بني فلان فتقول له نفياً لذلك: من جاءني أكرمته، وعلى هذا فقس.[٣]

وبهـــذا يعلـــم أن تقييد المسند بالشرط لا يجري دون مراعاة للمعاني ومتطلبات الأحوال ، بل كل أداة في مقامها المتطلب لها ، عند البليغ.

---

(١) الزمخشري صاحب تفسير الكشاف.

(٢) من بلاغة النظم العربي ٢٥٧.

(٣) ينظر حاشية الدسوقي ٣٥/٢ ، ٣٩.

ولما كان لإن ، وإذا ، ولو – بوجه خاص – أحكام دقيقة لم يستوف علــم الــنحو الكــلام فيها ، كان لا بد من وقوف البلاغيين عند الأدوات لتفصيل الكلام فيها لتوضيح ما بينها من فروق على النحو الآتي :

١–إن ، وإذا للشرط في الاستقبال ، ولكن الأصل في "إن" الدلالة على عدم جــزم المتكلم بوقوع الشرط ، ومن أجل ذلك استعملت غالباً في الحكم النادر ؛ لكونه غير مقطوع به ، وغلب دخولها على لفظ المضارع. أما الأصـــل في "إذا" فهو الدلالة على جزم المتكلم بوقوع الشرط ، أو على ترجــيحه لوقوعــه ، ومن أجل ذلك استعملت في الحكم الكثير الوقوع وغلب دخولها على لفظ الماضي لدلالته على تحقيق الوقوع.

وقد اجتمعت "إن وإذا" في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ﴾.[١]

حيــث أتى في جانب الحسنة والخير والعطاء بلفظ "إذا" إشعاراً بأن ذلك مقطوع به وكثير الوقوع عليهم، وأتى في جانب السيئة والبلاء والنقم بلفــظ "إن" إشــعاراً بندرة ذلك وقلة وقوعه بالنسبة إلى الحسنة، ولا غرو فخــير الله ورزقه لا ينقطع ليل نهار، أما بلاؤه ونقمه فهي إلى جانب ذلك قلــيل وقوعهــا. فلما يدوم إن وقعت فهي ملفوفة بالألطاف والعون[٢] هذا ويتعيــن عــدم الجهــل بمواقــع هاتين الأداتين، إذ الجهل بتلك يبعد عن

---

(١) سورة الأعراف ١٣١.

(٢) دراسات وتطبيقات في علم المعاني : ١٧٩.

الصواب، من هنا قال الزمخشري: وللجهل بموقع "إن" و "إذا" يزيغ عن الصواب ألا ترى إلى عبد الرحمن ابن حسان كيف أخطأ بهما الموقع، في قوله يخاطب بعض الولاة، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فقضاها:

نعمت ولم تحمد وأدركت حاجتي — تولى سواكم أجرها واصطناعها
أبى لك كسب الحمد رأى مقصر — ونفس أضاق الله بالخير باعها
إذا هي حثته على الخير مرة — عصاها وإن همت بشر أطاعها

فالأبيات في ذم بعض الولاة، وهذا يقتضي المبالغة في سلب كل الصفات الحميدة من قريب أو بعيد، ولكن الشاعر أدخل "إذا" التي تستعمل لمّا هو كائن محقق على جملة: "إذا هي حثته على الخير مرة عصاها، فأشعر المتلقي أن حث نفس الوالي بالخير أمر مُحقق وكائن، وهذا يضعف من قوة الهجاء والذم، وكذلك أدخل إن التي تستعمل فيما يترجح بين أن يكون وألا يكون على جملة "وإن همت بشر أطاعها" فأفاد أن عزم نفسه على الشر مشكوكٌ فيه ، ويترجح بين أن يكون وألا يكون وواضح أنه يضعف الهجاء الذي ينبغي أن يقوم -فنياً- على المبالغة، ولذا قال الزمخشري معلقاً على الأبيات "ولو عكس لأصاب"[1].

ومما ذكرت فيه "إذا" قول المتنبي :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته — وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

---

(١) بغية الإيضاح : ١٧٦/١.

وقد علق صاحب خصائص التراكيب على البيت بقوله: "وقد أصاب حين ذكر "إذا" في سياق إكرام الكريم؛ لأن هذا مما ينبغي أن يوجد دائماً، وذكـر "إن" فـي سياق إكرام اللئيم للإشارة إلى أن مثله من القليل النادر؛ وذلك لصعوبة يحتهم النفس إكرام اللئيم[1].

هذا وقد يستعمل البليغ إن "مكان" "إذا" لأغراض بلاغية منها :

١- التجاهل إذا اقتضاه المقام كما إذا سئل العبد عن سيده هل هو في الدار وهـو يعلـم أنه فيها فيقول : إن كان فيها أخبرك، فتجاهل خوفاً من سيده، وقس على هذا.

٢- إجـراء الكـلام على حسب حال المخاطب كأن يكون شاكاً في وقوع الشـرط غـير جازم بوقوعه، والمتكلم جازم بوقوعه، فيجري الكلام علـى حسب المخاطب كقولك لمن يشك في صدقك: إن صدقت فماذا تفعـل؟ فأنت جازم بصدقك ولكنك استعملت "إن" التي للشك تمشياً مع حال المخاطب الذي يشك في صدقك، وكان الأصل استعمال "إذا" فيما سبق بدلاً من "إن".

٣- تنزيل المخاطب العالم بوقوع الشرط منزلة الجاهل؛ لأنه لم يجر على مقتضى ما يعلمه، كقولك لمن يؤذي أباه: إن كان أباك فلا تؤذه.

---

(١) خصائص التراكيب ٢٦١.

ب – دواعي حذف المفعول به :

١– قد يكون القصد إلى مجرد إسناد الفعل إلى الفاعل من غير اعتبار تعلقه بمفعول فينزل الفعل حينئذ منزلة اللازم كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾(١) فقــد حذف المفعول لأن القصد إلى مجــرد إثبات الفعل للفاعل من غير أن يتعلق بالمفعول غرض أي خلق قوتــي الضــحك والبكاء، فالمقصود ذات الفعل، ومن ذلك :فلان يحل ويعقــد، ويضر وينفع، ويعطي ويمنع، لم يتعرض لذكر المفعول مع هذه الأفعــال لأن الغرض مجرد إثبات الفعل للفاعل، بمعنى أنه يحصل منه حــل وعقــد وضــر، ومــنه قول البحترى يمدح المعتز بالله ويعرض بالمستعين.

شــجو حســاده وغــيظ عــداه　　　أن يــرى مبصــر ويســمع واع

أي أن رؤيــة الناس لآثاره العظيمة وسماعهم لأخباره هما مصدر الحــزن لحساده ومبعث الغيظ لأعدائه، ولذلك يتمنوا أن تختفي هذه الآثار حــتى لا يشعر بفضله أحد ، وقد حذف المفعول في كل من يرى ويسمع ، لأن المقصــود مجــرد إثــبات الرؤية والسماع للفاعل من غير نظر إلى تعلقهمــا بالمفعول ، وذلك لبيان أن محاسن الممدوح قد بلغت من الوضوح والشــهرة حدا لا تخفى عنده على من له بصر أو سمع ، فيعلم أنه لا يليق لــتولي الخلافة سواه ، فلا يجد أعداؤه لمنازعته سبيلا ، وذكر المفعول أو تقديره هنا يفسد المعنى الذى يقصد إليه الشاعر.

---

(١) سورة النجم الآيتان : ٤٣ ، ٤٤.

٢-وإذا كان الغرض إفادة تعلق الفاعل بمفعول وجب تقديره بحسب القرائن ويكــون حذفــه عــندئذ من اللفظ لدواع يتعلق بها غرض المتكلم ومن أبرزها :

أ-البـيان بعد الإبهام كما في فعلي المشيئة والإرادة إذا لم يكن في تعلقهما بالمفعول غرابة كقولك : لو شئت جئت أو لم أجئ ، أي لو شئت المجئ أو عـدم المجـئ ، ومـن ذلك قوله تعالى ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1] أي مـن الإيمان ومن شاء الكفر ، وقوله ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] أي لو شاء هدايتكم ، وقوله ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾[3] أي من يشأ إضلاله ، حذف مفعول فعل المشيئة في كل ما تقدم للقصد إلى البيان بعـد الإبهام ، لأن في ذكر فعل المشيئة إعلاما للسامع أن هناك شيئاً قد علقـت المشيئة عليه لكنه مبهم عنده فإذا جئ بجواب الشرط صار هذا المـبهم مبينا واضحا عنده ، وهذا أوقع في نفس السامع ، وإذا كان تعلق فعـل المشـيئة بـالمفعول غرابة تعين ذكر المفعول ليتقرر ذلك الشئ الغريب في نفس السامع فيأنس به كقول الشاعر يرثي ابنه :

ولـو شـئت أن أبكـي دمـا لبكيته   علـيه ولكـن ساحة الصبر أوسع

وقـع قولـه : أن أبكـي دما مفعولا للمشيئة ، ولما كان بكاء الدم مسـتغربا صرح بالمفعول ليتقرر ذلك في ذهن السامع ، ومنه قوله تعالى

(١) سورة الكهف ٢٩.
(٢) سورة النحل ٩.
(٣) سورة الأنعام ٣٩.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾(١) المفعول في الآيــة : أن يــتخذ ولدا وقد ذكره لأنه من الغرابة بمكان أن يتخذ الله ولدا وهو رب العالمين ، ومنه قولك : لو شئت أن أقابل الرئيس كل يوم لقابلته.

ب-دفع توهم السامع في أول الأمر إرادة شئ غير المراد من الكلام كقول البحتري :

وكــم ذدت عــني من تحامل حادث ومــسورة أيــام حــززن إلى العظم

ذدت : دفعــت ، الــتحامل : عــدم العــدل ، سورة الأيام : شدتها وصــولتها ، حــذف المفعول وهو اللحم لأنه لو ذكر فقيل : حززن اللحم لربما توهم – قبل ذكر ما بعد اللحم من الكلام وهو قوله : إلى العظم.

أن الحز لم ينته إلى العظم بل كان في بعض اللحم ، ولذا ترك ذكر اللحــم ليــبعد عن السامع هذا التوهم، ويصور في نفسه من أول الأمر أن الحز تجاوز اللحم ولم يرده إلى العظم ، وبذلك يتحقق غرض الشاعر من بيان إحسان الممدوح إليه لكونه دفع عنه من الشدائد ما لا يطاق تحمله.

ومــنه قولك : طالعت حتى آخر صفحة ، تريد طالعت الكتاب لكنك حذفــت المفعــول لأن فــي ذكره قبل ذكر ما بعده توهم أنك لم تستوعب الكتاب مطالعة وهو غير مراد.

جـــ- أن يكــون الغــرض من الحذف التعميم في المفعول المحذوف مع الاختصار كقولك : قد كان منك ما يؤلم، أي كل أحد ، حذف المفعول

---

(١) سورة الزمر ٤.

لإفادة العموم فيمن وقع عليه الأثم وأن إيذاءه لغيره بلغ أمرا لا يختص بـــه واحـــدا دون آخر ، وعلى ذلك قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾[1] أي يدعـــو العباد كلهم ، لأن الدعوة إلى الجنة تعم جميع الناس لكن الهداية الموصلة إليها تختص من يشاء.

د- استهجان التصريح بالمفعول ، كما روى عن عائشة – رضى الله عنها – (مـــا رأيـــت مـــنه ولا رأى منى) أى العورة ، لما كان لفظ العورة مستقبح الذكر حذف من الكلام.

هـ- ويحذف المفعول لرعاية الفاصلة فى النثر أو لرعاية الوزن فى النظم، ومـــن ذلـــك قولـــه تعالى ﴿وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾[2] أى ما قلاك ، لكنه حذف المفعول لأن فواصل الآى جاءت علـــى الألـــف ، ويمكـــن أن يكون الحذف فى الآية للاختصار اللفظى لظهـــور المحـــذوف ومثله قولـــه تعالى ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾[3] يـــريد والذاكـــراته ، وكذا قوله ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾[4] أى آواك وهداك ، وأغناك، حذف المفعول من الآيات للاختصار اللفظى ، أو لرعاية الفاصلة ، ومن ذلـــك قوله ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾[5] يريد : من يخشى الله فحذف المفعول رعاية للفاصلة – ومن الحذف لرعاية الوزن قول الشاعر :

---

(١) سورة يونس ٢٥.
(٢) سورة الضحى ١ – ٣.
(٣) سورة الأحزاب ٣٥.
(٤) سورة الضحى ٦ – ٨.
(٥) سورة الأعلى ١٠ ، ١١.

بناها فأعلى والقنا تقرع القنا ... وموج المنايا حولها متلاطم

يريد فأعلاها ، لكن حذف المفعول لمراعاة وزن البيت.

و- قد يحذف المفعول لمجرد الاختصار ، كقولك : أصغيت إليه ، أي أذني، ومنه القرآن قوله ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾(١) أي ذاتك.

ز- ويحذف المفعول لتعينه ، كقوله تعالى ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾(٢) أي ينذر الذين كفروا ، حذف المفعول لكونه متعينا ولأن الغرض في الآية هو ذكر المنذر به.

جـ- دواعي تقديم المعمول على الفعل :

يقدم المفعول ونحوه - كالجار والمجرور والظرف والحال - على الفعل للأغراض الآتية :

١- إفادة التخصيص ، أي قصر العامل على معموله بحيث لا يتعداه إلى غيره كقوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٣) قدم المعمول (الكاف) لأن المقصود : نخصك بالعبادة وحدك والاستعانة بك دون غيرك ، فلا نعبد سواك ولا نستعين إلا بك ، ومنه قولك : الخير فعلت ، فتقدم المعمول ليفيد قصر الفعل على الخير ، وقولك : النحو ذاكرت ، يقصد قصر المذاكرة على النحو دون غيره من المواد وقوله

---

(١) سورة الأعراف ١٤٣.
(٢) سورة الكهف ٢.
(٣) سورة الفاتحة ٥.

تعالى ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾(١) وهذا الأسلوب في الغالب يكون للرد على مخاطب معتقد خلاف ما قلت أو يتردد فيه.

٢-ويقدم المعمول لمجرد الاهتمام بأمر المقدم دون القصد إلى التخصيص كقولك : العلم لزمت ، لما كان المهم في اعتبار المتكلم تعلق اللزوم بالعلم قدمه في الكلام.

٣-التعجيل بذكر ما يتيمن به أو يتلذذ أو بذكر ما يسر أو يسيئ ، مثال الأول قولك : بمحمد ص اقتديت، وإلى الله نبت ، والتلذذ كقولك :ليلى وصلت ، وعلى سلمى سلمت ، ومثال ما يسر : خيرا لقيت ، وتوفيقا جنيت ، ومثال ما يسيئ : بشر منيت ، وبلص ابتليت.

٤-ويقدم المعمول لكونه محط انكار كقولك لآخر : أفي الشر تسعى وقد علمت عواقبه؟ قدم المعمول لأنه محل للإنكار فأنت تنكر عليه سعيه في الشر مع معرفته بسوء عاقبته وقول الشاعر :

أكـــل امـــرئ تحســـبين امـــرأ ونـــارا توقـــد بالليـــل نـــار

٥-ويقدم المعمول بقصد المحافظة على الوزن أو رعاية الفاصلة ، مثال الأول قول الشاعر :

ســريع إلـــى ابـــن العم يلطم وجهه ولـــيس إلـــى داعي الندى بسريع

---

(١) سورة آل عمران ١٥٨.

يقــول : إنه إلى الإيذاء أسرع منه إلى الإحسان ، وقد قدم المعمول (إلـى داعي الندى) للمحافظة على وزن البيت ، ومثال الثاني قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ﴾(١) قـدم المعمـول فـي قوله : ثم الجحيم ، وقوله : في سلسلة لـرعاية فواصل الآيات ، ومنه قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾(٢) قـدم اليتيم والسائل رعاية لفواصل الآيات ، وربما كان التقديم فيها للاهتمام بأمر المقدم.

تقديم بعض المعمولات على بعض :

وتــرى البلــيغ يقــدم بعض المعمولات على بعض ليحقق أغراضاً بلاغية عدة منها :

١-كــون المقــدم أهم : فمثلا يحدث حادث غرق أو حرق فتتبلبل الأفكار وتضــطرب الــنفوس فيقدم المخاطب ما يسكن الثائرين ويهدئ النفوس فيقول : أنقذ الطلبة رجال الإنقاذ "فيقدم المفعول على الفاعل لأنه الأهم والمقصود".(٣)

ومــن ذلك قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾(٤) وقولـه في آية أخرى ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ

(١) سورة الحاقة ٣٠ - ٣٢.
(٢) سورة الضحى ٩ ، ١٠.
(٣) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٧٠.
(٤) سورة الأنعام ١٥١.

نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[1] قال في الأولى ﴿نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ فقدم ضمير المخاطبين على الأولاد ، وقال في الثانية ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ فقدم ضمير الأولاد على المخاطبين وذلك لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل قوله (من إملاق) المفيد أنهم في إملاق فكان رزقهم أهم عندهم من رزق أولادهم ؛ لأنهم في حاجة إليه ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله (خشية إملاق) فإن الخشية إنما تكون من أمر لم يقع فكان رزق أولاده في هذا السياق هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم ، وهذا في غاية الدقة كما ترى.[2]

٢-**أن يكون في التأخير إخلال بالمعنى المراد** : كما في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ والمقدم هو قوله (من آل فرعون) وهو صفة رجل ، ولو أخره عن (يكتم إيمانه) وقال : رجل مؤمن يكتم إيمانه من آل فرعون ، لتوهم أنه متعلق بيكتم ، وأنه ليس صفة لرجل فلا يفهم أن الرجل من آل فرعون).

٣-**أن يكون في التأخير إخلال بالنظم** ، كقوله تعالى ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾[3] فالتقديم لهذه الصياغة اللفظية التي يعنى بها القرآن وهي إحدى وسائل تأثيره في النفس ،

---

(١) سورة الإسراء ٣١.

(٢) خصائص التركيب ٢٩٤.

(٣) سورة طه ٦٧، ٦٨.

وأصل الجملة (فأوجس موسى في نفسه خيفة) وإذا قارنا بين التعبير في الآيــة وبيــن الــنظم فــي الثاني ، وجدنا خروجاً على النسق وإخلالا بموسيقى النظم.(١)

٤-وقــد يكــون التقديم راجعاً إلى الأسبقية في الفضل، وذلك كما في قوله تعالى ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾(٢) قالوا: قدم الــرجالة ؛ لأنهــم أفضل منزلة عند الله لما يعانون في الحج من الجهد والمشقة.(٣)

هذا وبالله التوفيق،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن ١٧٠.

(٢) سورة الحج ٢٧.

(٣) خصائص التراكيب ٢٩٥.

جامعة الأزهر

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بالشرقية

استمارة الاشتراك في

كتاب: محاضرات في علم المعاني

المادة : البلاغة

اسم الطالب:..

الفرقة : ....

العام الجامعي : ....

رقم الجلوس: ....

– تعاد هذه الاستمارة ثانية مع حلول الأسئلة التطبيقية التي ستسلم فيما بعد.

أستاذ المادة